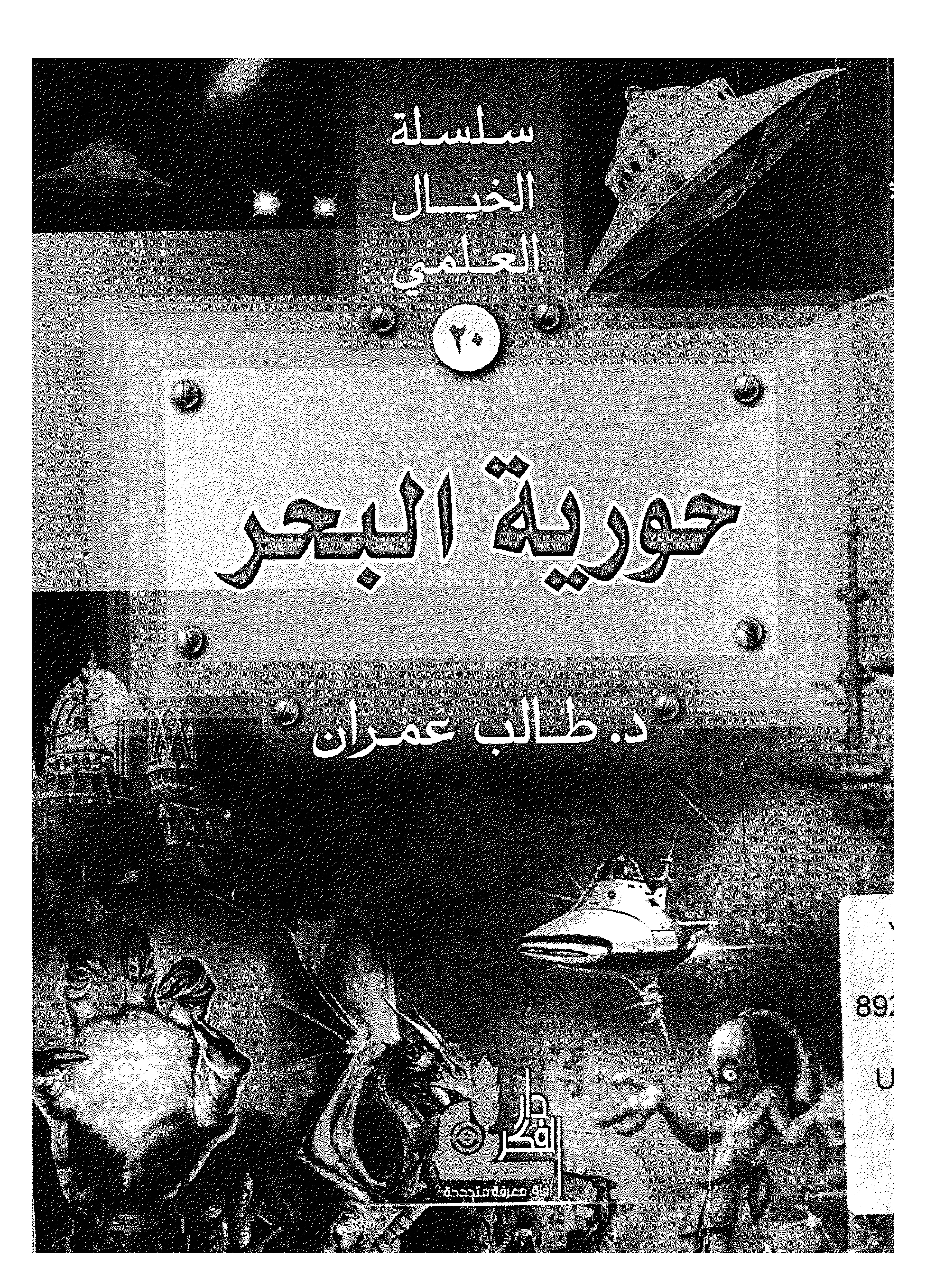

سلسلة
الخيال
العلمي
٢٠
حورية البحر
د. طالب عمران
دار
الفكر
آفاق معرفة متجددة

طالب عمران

- من مواليد دمشق ١٩٤٨
- دكتوراه في المنطويات التفاضلية والفلك من جامعة عليكرة الإسلامية بالهند.
- أستاذ في كلية الهندسة المدنية بجامعة دمشق
- عضو جمعية تاريخ العلوم عند العرب، ومركز الدراسات الفلكية (جامعة دمشق)، واتحاد الكتاب العرب، واتحاد الصحفيين العرب.

له:

- العالم من حولنا
- كوكب الأحلام
- العابرون خلف الشمس
- صوت من القاع
- نافذة على كوكب الحياة
- سلسلة روايات الخيال العلمي (دار الفكر)

منحة 2006

SIDA

السويد



حوريـة البحـر

حورية البحر/ طالب عمران.- دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤.- ١٠٤ص؛ ٢٠سم.
(روايات من الخيال العلمي؛ ٢٠).
١-٨١٣,٠٨٨ ع م ر ح ٢-العنوان
٣-عمران ٤-السلسلة
مكتبة الأسد

روايات

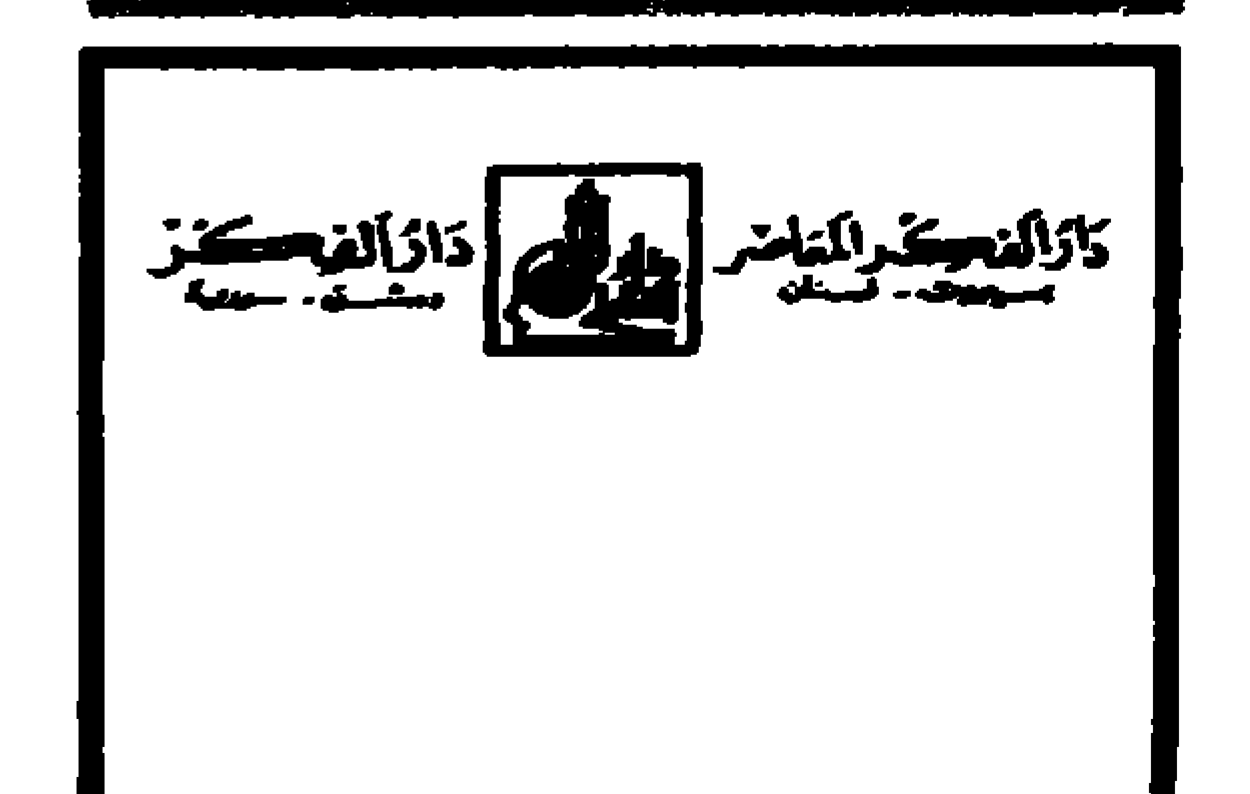
من الخيال العلمي

(٢٠)

الدكتور

طالب عمران

حورية البحر



الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٤٢,٢٠
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ١٧٢٠,٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-412-3
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-59239-200-8
الرقم الموضوعي: ٨٥٠
الموضوع: القصة والرواية
السلسلة: روايات الخيال العلمي
العنوان: حورية البحر
التأليف: د. طالب عمران
الصف التصويري: دار الفكر – دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية – دمشق
عدد الصفحات: ١٠٤ صفحة
قياس الصفحة: ١٤ × ٢٠سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق–سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ – ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com



الطبعة الأولى
رجب ١٤٢٥هـ
آب (أغسطس) ٢٠٠٤م

المحتوى

الموضوع	الصفحة

حوريّة البحر

كانت السفينة تشق عباب المياه، متجهة نحو جزر المالديف في المحيط الهندي، وكان على متنها ستة عشر بحاراً، خبروا السفر والترحال، ينفذون تعليمات ربانهم الشاب الذي عاش في البحر منذ طفولته، وخبره أيضاً في غضبه وجنونه، وفي هدوئه ووداعته..

كان واقفاً في مقدمة السفينة يتأمل البحر، والرياح الخفيفة تدفع الأشرعة في اتجاه الجنوب الشرقي.. كان عليه أن يواصل رحلته دون توقف ليصل إلى أقرب جزيرة قبل أن تبدأ الرياح الخماسينية بالعبث بأمواج البحر.. استمر الإبحار طويلاً.. اعتمد أحمد على الأشرعة حيناً وعلى المحرك أحياناً أخرى.. كان الصيف على وشك أن ينتهي في أواسط شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٩٣٠م وأحمد يتابع رحلته لإيصال المواد الغذائية إلى جزر المالديف من (عدن) أحد أهم المرافئ في بحر العرب. مستغلاً هدوء البحر في هذا الوقت من العام. والسماء صافية والحرارة معتدلة..

ولاحت لهم أرض جزيرة في الأفق، فشعر أحمد والبحارة بالارتياح، واتجهت السفينة بهدوء إلى الجزيرة، ورفع منظاره المقرّب، وأخذ يحدّق في الأشجار والصخور التي بدت له على حوافّ الجزيرة..

- سنقضي بعض الوقت هناك، تبدو جزيرة جميلة.. استعدوا لإنزال الأشرعة يا حسن..

- حاضر يا سيدي..

كان حسن أقرب البحارة إلى قلب أحمد، لذلك سلّمه كل شيء تقريباً في السفينة، وقد أمر بإنزال الأشرعة والتجذيف المتواصل، والسفينة تقترب من الجزيرة..

ألقى حسن المرساة، وأنزل زورقاً صغيراً، وضع فيه المؤن، وأشار إلى أحمد والبحارة أن يستقلّوه.. ثم هبط بعدهم، وبدأت عملية التجذيف حتى وصل الزورق إلى الشاطئ..

كان أحمد شارداً وهو يتأملهم يثبتون أوتاد الخيام الصغيرة. همس إلى حسن:

- سأذهب لأتمشى في الجزيرة، وأعود هنا قبل المغيب.

- وحدك يا سيدي. ألا ترغب باصطحاب أحد الرجال معك؟

- لا داعي لذلك.

- إنها جزيرة مجهولة، ربما تكثر فيها الوحوش والأفاعي.. لا تبتعد كثيراً.. خذ البندقية، وإذا صادفت مشكلة فأطلق النار وسنأتي لنجدتك فوراً.. خذ حذرك يا سيدي..

- لا تقلق يا حسن. لست صغيراً.

وبدأ أحمد رحلته.. كانت جزيرة جميلة.. تنتشر فيها الطيور الملوّنة والغزلان.. صعد إحدى الهضاب المطلّة على الجزيرة وأخذ يتأمل المناظر البديعة التي طالعته.. لفت نظره هياكل، بدت عن بعد أشبه بالأشباح تتحرك وتقفز في البحر. شعر بالدهشة تتملّكه.. «أيمكن أن تكون هذه الجزيرة مسكونة بالبشر؟ لقد أكد لي حسن أنها خالية من الناس، سأذهب لأستكشف تلك المنطقة. لا تبدو بعيدة سأصل إليها خلال وقت قصير».

أخذ يجتاز الغابة الصغيرة.. والطيور الجميلة تزقزق وتغرّد بأصواتها المختلفة.. توقف مشدوهاً: «معقول؟ كأنني أرى مجموعة كبيرة من النساء ينتشرن على الصخور.. ولكن ما هذا؟ نصفهن السفلي بشكل أسماك.. يا إلهي.. إنهن عرائس البحر.. ما أجملهن.. سأقترب منهن.. لماذا أشعر بالقلق؟ لست خائفاً.. ربما أذهلني هذا المنظر البديع، هي المرة الأولى التي أرى فيها عروس بحر

حقيقية.. رغم أنني أخوض البحار منذ أكثر من عشرين سنة.. هل أعود وأخبر حسناً وبقية الرجال؟ أعتقد أن هذا أفضل. ولكن؟ ما هذا؟ إحداهن ترضع ولدها.. إنها تقبله بحنان.. يجب أن أقترب لأتملّى هذه المشاهد المثيرة..».

استند إلى أحد الأغصان الذي كاد يتكسر تحت ثقله.. يبغي الصعود إلى قمة الصخرة المطلة على حوريات البحر.. ولكنه هوى من على الصخرة، وارتطم جسمه بالأرض.. ففقد الوعي.

* * *

- يا إلهي، أين أنا؟ هذه الفتاة الجميلة تقترب مني.. أرى وجهها العذب.. إن عينيها الجميلتين بزرقة البحر، آه، إنها تشدني من يدي.. أسبح معها.. بدأت تجرني إلى الأعماق، كيف يحدث هذا؟ كأنني أتنفس بحرية دون صعوبة رغم أنني أغوص..

- كنت أنتظر وصولك منذ زمن بعيد..

- أنا؟

- رأيتك مراراً تشق البحر بسفينتك فتعلق قلبي بك..

- وكيف عرفت أنني سأصل إلى الجزيرة؟

- أنا ابنة ملك الأعماق، مملكة والدي تمتد في أعماق هذا المحيط، وقد تتبّعك رسلي منذ أن أقلعت بسفينتك من ميناء عدن..

- يا إلهي، تبدو جميلة رائعة التكوين يغطي شعرها الطويل صدرها..

- ها قد حضرت العربة الملكيّة...

رأى أحمد عربة جميلة مزخرفة بالجواهر، تشدها حيوانات بحرية أشبه بالسلاحف..

- تفضل، اصعد.

- «يا إلهي، شيء ما يدفعني.. لا أرى أحداً حولي.. كأنني مسيّر بقوة غامضة. باب العربة المرصّعة بالجواهر ينفتح.. أدخل إلى جوفها، تتبعني الحورية الجميلة.. آه».

- ألا ترى جمال مملكتنا؟ النباتات الخضر المزرقّة والمرجانيات ونجوم البحر والأسماك الملوّنة.. انظر هناك على اليمين.. أترى ذلك الكهف الذي يقبع قربه أخطبوط ضخم؟..

- نعم.

- إنه متحف عاصمتنا البحرية..

- متحف؟

- فيه كل الآثار القديمة منذ آلاف السنين للحضارات التي تتألق في أعماق البحر عندنا..

تفضل اقترينا من البوابة الضخمة للمدينة..

- يا إلهي، ما هذا السور الضخم؟ بوابة ضخمة تنفتح.. العربة تخترق المدينة المغطاة بغطاء ضخم كالصدف، ولكنه شفاف يدخل النور والضياء في كل مكان..

- رجال ونساء من كل شكل توافدوا للسلام على الأميرة، نصفهم العلوي يشبه البشر والنصف السفلي بشكل زعانف السمك.

- أحمد.. إن والدي ينتظرنا..

- ذلك الكهل الوديع الذي يضع على رأسه تاجاً مذهباً.

- نعم.. تفضل، اخرج من العربة.

اقترب الكهل يحتفي بالبشري القادم: - أهلاً بك يا بني في مملكتنا المسالمة.

- شكراً يا سيدي.

- سندخل القصر الملكي الآن.. ألا ترى الحاشية وهي تنتظم في صف واحد بقصد تحيتك..

- أنا؟ ولماذا يا سيدي؟

- ستصبح من كبار رجال المملكة رغم شكلك الغريب.. ربما تمضي سنوات قبل أن تتكيف مع جوّنا.. وتضمحل رجلاك حتى تلتصقا لتشكلا ذيلاً مثل كل من يعيش هنا.

- ماذا؟ هل سأتحول إلى شكل مشابه لأشكالكم؟

- بالطبع، إنه قانون الحياة هنا...

- كم سيستغرق ذلك؟

- «كما قلت لك يا بني، ربما تمضي سنوات قبل أن تتكيّف مع جوّنا حتى بالشكل» همست الأميرة:

- تبدو متعباً.. اذهب واسترح في جناحك.. سأمرُّ عليك بعد قليل لنتجول معاً في المدينة.

شعر أنه مدفوع صوب غرفة سحرية، سريرها يغري بالنوم والتحليق في أجواء الحلم..

«يا إلهي».. ماذا أصابني.. أشعر برجلي تفقد الحس.. كأنها تنشلُّ بالتدريج.. تنميل متواصل.. سأرى ما طرأ عليها.. أوه..

تبدو متورمة.. يا إلهي.. رجلي تصبح سوداء، والرجل الأخرى أيضاً.. آه.. غير معقول».

انفتح الباب ودخلت حورية البحر الأميرة: ماذا يحدث لك يا أحمد؟

- رجلاي تتغيران.. بدأ السواد يلوّن جلدهما.. وأشعر أن تنميلاً أشبه بشلل بسيط يسيطر عليهما...

-لماذا أنت حزين؟ ستصبح مثلنا بسرعة. هذا أفضل لك.

- ماذا تقصدين؟

- حين يطرأ عليك التحول.. ستتزوج وتصبح السيد المطاع هنا.. وستصبح الملك بعد وفاة أبي.. ستصبح أكثر قوة وبأساً...

يا إلهي. ستلتصق رجلاي وتتحولان معاً إلى زعنفة سمكة.

- نعم يا حبيبي.. هذا يدل على أن حبك لي عميق وأبدي..

- ولكن رجليّ؟

- ستكون مسروراً في الحياة بيننا.. سأصطحبك في رحلات صيد إلى البحار الجنوبيّة. وأريك مملكة عمي القريبة التي هي جميلة مثل مملكتنا، وبها الفيلة البحرية، والتماسيح الضخمة.

- تماسيح في بحر!؟

- زواحف ضخمة أشبه بالتماسيح ولكنها أضخم منها...

- يا إلهي، التنميل في رجليَّ يزداد.. ماذا أفعل؟

- أتحب أن ترافقني في جولتي في المدينة؟

- الآن؟

- نعم.. إذا لم تكن متعباً.

شعر أنه لم يعد يرى شيئاً، أخذ يصرخ بصوت مفجوع، وهو يقاوم الماء الذي شعر أنه يدخل في فمه:

«لا.. لا.. لا أريد أن يتحول شكلي، كيف يمكن أن تتحول رجلاي إلى زعنفة وأصبح مشوهاً.. نصف بشري ونصف سمكي؟ ما الذي حدث لي؟ أصبحت لي زعنفة الآن مكان الرجلين أحركها فتدفعني في الماء.. زعنفة كريهة ليّنة.. فوقها حراشف قاسية.. لم أعد كائناً بشرياً.. آه أيتها الزعنفة القبيحة.. كيف صرت جزءاً مني.. آه، لا أريد أن أصبح كائناً مائياً.. لا أريد.. لا أريد أن أصبح مشوهاً بزعنفة قبيحة... آه.. آه...».

- أحمد.. اصْحَ يبدو أنك تشهد كابوساً..

- أين أنا؟ آه...

- أنت في مخيمنا على الشاطئ.

- الحمد لله...

- لا تخف كل شيء على ما يرام.

- الحمد لله، رجلاي سليمتان.. لم تصبح لدي زعنفة..

- زعنفة؟

- آه.. هكذا اعتقدت...

- كنت تحلم.. يبدو أنك شهدت كابوساً مخيفاً..

استيقظ تماماً.. أمسك بيد حسن وهزها..

- حسن.. هل أنت من أحضرني إلى هنا؟ أين عثرتم علي؟

- في طرف الجزيرة الآخر.. كنت قرب صخرة عالية فاقد الوعي.. يبدو أنك سقطت، وأنت تحاول تسلقها...

- آه.. فعلاً رأسي يؤلمني.. ها.. ربطتم رأسي بالضماد أيضاً..

- نزفت كثيراً يا سيدي قبل أن نعثر عليك.. قلت إنك لن تتأخر.. وغابت الشمس ولم تعد، أكلنا القلق.. فذهبت ومعي بعض البحارة نبحث عنك، ومعنا فانوس أنار لنا الطريق.. بحثنا كثيراً حتى اعترانا اليأس.. ولكن كائناً عجيباً من البحر كان يلقي

جهتك بالأعشاب البحرية.. فهمنا من حركته أنه يدلنا على مكانك...

– كائن بحري؟

– نعم.. لم نتمكن من تمييز شكله ولكنّه كان سريع الحركة.. توقعنا أن يكون دلفيناً.. لأن هذه الحيوانات المائية ذكية لطيفة، وتساعد الإنسان أحياناً...

شرد أحمد «إنها هي.. يبدو أنني كنت في الأعماق معها».

نبهه حسن: – ما بك يا سيدي؟

– هه.. آسف.. أكمل القصة.. وبعد ذلك رأيتني ملقى بين الصخور؟

– من حسن حظك أن المدّ لم يكن قد ارتفع حين عثرنا عليك.. وإلا كنت غرقت، لا سمح الله.

– اسمع يا حسن..

– ماذا يا سيدي؟

– ما رأيك بعرائس البحر؟

– أسمع الكثير من القصص عنها.. وأقول لك بصراحة: لا أصدق كل تلك القصص..

- ألا تعتقد بوجودها؟

-ربما تكون موجودة.. ولكن القصص التي تقال عنها فيها الكثير من المبالغة.

- حسناً ألا تتذكر أبداً شكل الكائن البحري الذي دلكم على مكاني؟

- منعنا الظلام من تمييز شكله.. عدا عن أننا كنا قلقين عليك.. اسمع يا سيدي.. حاول أن تنام الآن.

- أحس بالجوع.

- عظيم إن كانت شهيتك جيدة.. فإن حالتك على ما يرام، سأحضر لك بعض الحساء...

شرد أحمد بعد خروج حسن.. غمغم «عروس البحر ساعدتهم في العثور عليّ.. هكذا يعتقدون... لم لا تكون قد صعدت بي من الأعماق بعد أن رفضت فكرة تبديل شكلي.. لتصبح لدى زعنفة أشبه بزعانف السمك؟ إنه شيء محيّر فعلاً».

تناول الحساء بشهية زائدة مع قطعة من الخبز.. همس إليه حسن:

- حاول أن تنام الآن.. قد نبكر صباحاً بالإبحار.. إن كانت حالتك تسمح بذلك.

- حسناً..

تقلب أحمد كثيراً في فراشه الممدّد على أرض الخيمة.. وهو يفكر بحورية البحر، وأخيراً أغفى على وجهها العذب...

* * *

كانت تقترب منه.. بدفء أنفاسها أثارت عاطفته.. ولكن التفاتة منه إلى رجليه جعلته يصاب بالذهول:

- ما الذي يحدث لي؟ أنا أتحول فعلاً إلى كائن بحري..

- يبدو أن تغيرك السريع قد أرعبك، أليس كذلك يا حبيبي؟

لا تخف ستتكيف مع وضعك الجديد، حين تتعرف جمال مملكتنا. ستشعر أن تضحيتك بشكلك البشري، لها ما يبررها...

- كيف؟ ألن أرى اليابسة ثانية؟

- ستراها ولكن عن بعد.. من فوق سطح البحر أو من فوق صخور بحرية قرب خلجان عميقة.

- ولن أمشي عليها، ستضمحل قدماي.. وتحل محلهما هذه الزعنفة القبيحة.

- سترى أنها أجمل شيء وهبه الله لك في البحر.. ستنتقل بوساطتها بسرعة تحت الماء، تمرق كالسهم من مكان إلى مكان...

- آه.. لا أريد هذا التبدل.. أريد أن أعود إلى طبيعتي البشرية.

- وتنساني هكذا، تنسى هذه المملكة الواسعة التي ستؤول إليك يوماً ما... لم تر شيئاً من جمالها بعد؟ لم تر شيئاً من كنوزها المخبوءة، وأسرار سحرها، وعبقريات حكمائها.

- أنا متعب.. أحس أنني مقبل على كارثة.. قلبي متعلق بهذه الحورية الجميلة.. يجب أن أقاوم قبل أن يقع المحظور.. أكره الزعانف القبيحة المنتشرة في كل مكان هنا... أكرهها...

❋ ❋ ❋

كان يصرخ بملء صوته.. «لا أريد هذه الزعنفة القبيحة.. أكرهها.. أكرهها...

- ريس أحمد.. اصح من نومك، يا ريس أحمد...

- آه.. ماذا؟ .. من؟

- اصح يا سيدي، يبدو أنك تشهد كابوساً من جديد...

- آه... فعلاً كان كابوساً مريعاً...

-كيف حالك الآن؟ أتشعر بألم في رأسك؟

- قليلاً.

- «إذن، باستطاعتك احتمال الرحلة.. سنبدأ الإبحار بعد قليل».. اعتدل في فراشه قليلاً»:

- اسمع يا حسن، أريد أن ترافقني في جولة في الجزيرة قبل أن نبحر.

- ماذا؟ ماذا تقول يا سيدي؟

- ما سمعته.. هناك أسئلة في ذهني أريد أن أعرف، إن استطعت الإجابة عنها...

- حسناً سأخبر الرجال أن ينتظروا قليلاً.. وأن ينقلوا الخضر والفواكه التي تزودنا بها من الجزيرة إلى المركب استعداداً للإبحار.

دقائق وانطلق الرجلان نحو عمق الجزيرة من جديد...

- سنبدأ جولتنا بالمنطقة التي عثرتم عليّ فيها أمس...

- إنها بعيدة قليلاً.. ولكن لابأس...

- ماذا تحمل في هذه الحقيبة على ظهرك؟

- بعض الأشياء الضرورية...

- وتحمل بندقيّة أيضاً؟

-بالطبع يا ريس أحمد.. بندقيتك لا تكفي.. ربما اصطدنا غزالاً في طريقنا أو إوزّة وحشيّة.

وتابع الرجلان سيرهما داخل الغابة الصغيرة مقتربين من المكان الذي سقط فيه أحمد يوم أمس.. وفجأة توقف أحمد عن المسير.

- حسن.. انظر هناك على الصخور.. ماذا ترى؟

- يا إلهي.. عرائس البحر...

- هذه العرائس.. سبب سقوطي البارحة...

- كيف؟

- كنت أقترب متسللاً من مكان وجودهن.. حين فقدت الوعي... تخيّلت أن إحداهن ابنة ملك البحر.. وقد سحبتني إلى مملكة أبيها...

- كنت تحلم إذن؟

- يمكنك أن تقول: إن تفاصيل حلمي كانت مدهشة لدرجة اعتقدته حقيقة، وحتى الآن مازلت على اعتقادي من أن بعض ما يجري لي كان حقيقة وليس حلماً...

- أنت بحار يا سيدي... وبحار متمرس.. أتصدق أن إحداهن سحبتك إلى الأعماق...

- وما المانع؟..

- وكيف ستتنفس؟ كيف ستستنشق الهواء اللازم للحياة؟

- ربما ساعدتني في الانتصار على هذه المشكلة.

- كيف؟ لا أستطيع تخيل ذلك...

- بطريقة ما... من يعلم؟

- لا أصدق ذلك يا سيدي... ولكن الشيء الغريب أن حوريات البحر اللواتي نراهن الآن وهن يقفزن ويتراشقن بالماء.. بعضهن يرضعن أطفالهن بحنان.. إنه مشهد ساحر فعلاً...

- دعنا نقترب يا حسن.

- لنقترب يا سيدي...

وصلا إلى الصخرة التي حاول أحمد تسلقها من قبل.. همس حسن:

- لنصعد بهدوء يا سيدي... حاول ألا تصدر صوتاً...

- طيب.. هه.. لقد وصلت.. أعطني يدك سأساعدك...

- لا داعي، باستطاعتي أن أصعد وحدي...

وما إن أطلاّ من فوق الصخرة حتى شاهدا مئات المخلوقات تقفز إلى الماء بسرعة كبيرة وتختفي...

- شعرن بوجودنا، وكرهن هذه المراقبة فاختفين...

- ضاعت منا فرصة ثمينة...

- ماذا كنت تبغي من عرائس البحر يا سيدي؟

- كنت أرغب بالانفراد بإحداهن.. لأتعرّف شخصية تلك المخلوقات العجيبة... التي وصفها بعض وبالغ في وصفها إلى حد الخرافة...

ضرب حسن جبهته براحة يده..:

- آه كيف غاب عن بالي هذا الأمر؟

- ماذا يا حسن؟

- في حكايات البحارة: إن جزيرة في المحيط الهندي تعيش على شواطئها عرائس البحر حتى إن بعضهم سماها (جزيرة عرائس البحر) وربما كانت هذه الجزيرة هي الجزيرة نفسها التي نحن فوقها الآن...

- معقول؟

- آه.. نعم.. إنها الجزيرة الوحيدة بين كل الجزر التي تنتشر فوقها عرائس البحر، فضولك يا ريس ليس جديداً، كثير من البحارة قدموا هذه الجزيرة من قبل، وحاولوا الوصول إلى إحدى هذه العرائس.. ولكن دون نتيجة.. ويقال: إن بعضهم اختفى.. لأن إحدى الحوريات خطفته، ونزلت به إلى الأعماق.. ولكني أعتقد أن هذا الأمر قد بولغ فيه كثيراً...

- آه.. فهمت.

- هيا بنا نعود إلى مركبنا يا سيدي.. من المستحيل عليك أن تقتنص إحدى هذه العرائس لأنها سريعة الحركة حساسة، تهرب بسرعة..

- لنعد إذن إلى المركب...

- سنقلع في اتجاه المالديف، وفي طريق العودة.. ربما عنَّ لنا أن نقضي بضعة أيام هنا...

- فكرة جيدة، يا حسن... لنتطلق الآن نحو رجالنا، ولنبدأ في الإبحار فوراً... على بركة الله.

* * *

وهكذا أقلعت السفينة متجهة نحو جزر المالديف، ورغم أن فضول أحمد وتعلقه بحورية البحر بدا زائداً عن حسن.. إلا أنه كان أقل بكثير من فضول أي بحار متمرس يصل إلى جزيرة (عرائس البحر) ويقضي الأيام والليالي محاولاً حصر إحدى الحوريات والتقاطها، والفوز - كما يعتقد - بنعيم الحياة معها.. فقد يصبح ثرياً.. إذا أحبته الحورية. لأنها تحضر له اللالئ والأحجار الكريمة من الأعماق بكثرة...

ويصورون حوريات البحر أحياناً بشكل مخلوقات ملائكية فوق مستوى البشر.. وأحياناً بشكل جنّيات لهن قدرة كبيرةٌ على التحول.. رغم أنَّ في نشأتها أن بعض الآدميين اختطِفوا من الشاطئ وحِملوا إلى قاع البحر حيث توجد مملكة عجيبة. وقد تزوجوا من بنات الماء، فأتى نتاجهم على شكل كائنات نصفها العلوي من البشر، ونصفها السفلي عبارة عن زعنفة ضخمة تشبه زعانف السمك...

كان البحارة يتحدثون بتلك القصص أمام الريس أحمد. وهو شارد ذاهل، يستعيد أحداث حلمه بأميرة البحر...

وصلت السفينة إلى جزيرة (دفلي) من جزر المالديف.. وأفرغت شحنتها من المواد الغذائية، وحملت شحنة من

المنسوجات والحرير الهندي والعاج.. ثم أبحرت من جديد في طريق العودة...

كان أحمد قد أحضر معه بعض الكتب العربية التي طلبها منه بعض العرب الذين يعيشون في المالديف.. وقدم لهم الهدايا بالمقابل...

ظل طوال الوقت مشغولاً بالقراءة وحسن يتولى إدارة دفة السفينة.. محترماً انشغاله بالقراءة، وقد علم أن معظم الكتب تتحدث عن قصص وحكايات تدور حول مغامرات البحارة مع عرائس البحر...

* * *

- ساعات قليلة، ونصل إلى جزيرة (عرائس البحر)، أما تزال مصمماً على معرفة سر هذه المخلوقات بصيد إحداها...

- كما تعلم، قرأت الكثير من الكتب التي تتحدث عنها.. وسمعت الكثير من الحكايات حولها عندما وصلنا إلى جزيرة (دفلي)، وقد زاد هذا من الفضول عندي في الجزيرة قبل أن تكشف السر..

- حسناً يا سيدي.. الفضول أيضاً ينتابني لمعرفة هذا السر...

اقتربت السفينة من الجزيرة، كان قلب أحمد يخفق بعنف، وقد استعاد صورة تلك المخلوقات الجميلة التي رآها في حلمه.. ألقى حسن المرساة، واتجه الجميع بزورق صغير صوب الجزيرة، كان الوقت متأخراً، وقد غربت الشمس.. وبعد أن نصب الرجال الخيام همس حسن:

- سنرتاح اليوم ونبكر في النهوض غداً...

- هذا أفضل يا سيدي...

- تبدو السعادة على البحارة.. كأنهم فرحون بالهبوط إلى الجزيرة..

- ها.. معهم حق يا سيدي...

- لماذا؟

- في المرة الماضية اصطادوا عدداً من الببغاوات، وقد باعوها في جزيرة (دفلي) بأثمان مرتفعة.. ويرغبون أن يعاودوا الكرة، وهم في طريق العودة.

- آه تذكرت.. كانت هناك أعداد كبيرة من الببغاوات تطير في سماء الجزيرة.. وتطلق أصواتها المقلدة...

تمدد أحمد بعد العشاء فوق فراشه يفكر في حكايات السندباد التي قرأها في (ألف ليلة وليلة)، أليس ذلك الوصف خيالياً؟؟ من يدري؟ يجب أن أعرف سر هذه المخلوقات قبل أن أغادر الجزيرة...

شعر أحمد كأن أحدهم يشده من يده.. سمع صوتاً ناعماً:

- أحمد تعال معي...

كانت منحنية عليه بوجهها العذب: - أنت.. وكيف وصلت إلى معسكرنا، وقطعت كل هذه المسافة التي تفصلنا عن البحر؟

- استعنت بيدي وزحفت على الرمال حتى وصلت إلى هنا...

- ألم يرك أحد؟

- لا... تعال معي الآن.

- أين؟

- ألا ترغب في تعرف مملكتنا؟ في المرة الماضية، لم يكن لديك الوقت الكافي لزيارة المدينة والمتاحف البحرية وحدائق المرجان.. هيا تعال...

كانت تشده من يده بقوة:

- ماذا تفعلين؟ حسناً سأرتدي ثيابي...

- هذا اللباس الخفيف يكفي.. سنغطس في الأعماق هيا.

كانت تتحرك بسرعة على الرمال، وهي تستعين بيديها وزعنفتها...

- أسرع يا حبيبي...

خفق قلبه بشدة.. «حبيبها؟ إنها كائنة لطيفة.. ولكن كيف سنعيش معاً وهي بهذا النصف السفلي الكريه.. أوه.. أكره أن تتحول رجلاي إلى زعنفة»...

- العربة الملكية في انتظارنا.. أفراس البحر السريعة تقف متأهبة لنقلنا بسرعة إلى القاع حيث سيجري لنا استقبال حاشد...

- ما أسرعك وأنت تزحفين على الرمال.

- حتى لا تندم.. حينما تضمحل رجلاك وتتحولان إلى زعنفة.. يمكنك عندها الحركة مثلي أيضاً.. أترى؟

- معقول، أن أرغب في تبديل شكلي.. وأصبح كائناً مائياً؟

- ها قد وصلنا.. عجل.. هات يدك...

- آه.. آه.. لماذا تسحبينني بهذه السرعة؟

أحس أنه يغطس في الماء مرغماً.. ولم يتمكن من مقاومة ابتلاع الماء وقد ضاق نفسه... سيغرق إذن.. حاول المقاومة، ولكن المياه التي ابتلعها سدت مجرى التنفس فشعر أنه يختنق.. وكأنما امتدت يد تحاول انتشاله من المياه...

- استيقظ يا ريس... طلع الصباح...

تقلب في فراشه مستيقظاً وقلبه يضرب بعنف.

«الحمد لله يبدو أنني كنت أحلم بتلك الحورية.. هذه المرة لم أستطع تحمل المياه، وأنا أُجَرُّ للأعماق.. كدت أختنق وأموت غرقاً.. الحمد لله لم يكن ذلك حقيقة..».

* * *

- لم تنس شيئاً، حتى المنظار المقرب؟

- تعلمت من المرة السابقة.. لنسلك هذه الطريق المختصرة يا ريس..

- إنها جزيرة جميلة فعلاً...

- ومأمونة.. فالحيوانات تعيش فيها بأمان...

- غريب أنها غير مأهولة بالناس؟

- هناك الكثير من الجزر مثلها في المحيط... يحتاج التفكير بالسكن هنا إلى المغامرة.

- معك حق يا حسن.

اجتازا الغابةَ الصغيرة.. واقتربا من الصخرة المرتفعة التي تطل على المكان الذي تكثر فيه عرائس البحر...

- يا إلهي، الصخور في الخليج تزدحم بعرائس البحر...

- أعطني المنظار يا حسن.

- تفضل يا سيدي...

- هه.. ماذا أرى؟ كائنات بحرية ترضع صغارها ووجوهها غير واضحة...

- سنصعد بهدوء إلى الصخرة.. سنكون أقرب لتلك الأحياء من هنا...

سنراها جيداً...

- لنصعد إذن...

- انتبه يا ريس.. يجب ألا تكرّر ما حدث المرة الماضية.. لو أصدرنا أي صوت فستهرب عرائس البحر..

بحذر شديد، بدأ أحمد وحسن يتسلقان الصخرة.. كان أحمد متشوقاً إلى النظر بالمنظار المقرب ومراقبة عرائس البحر...

- يا إلهي ما هذا؟ أكاد لا أصدق...

- ماذا ترى في المنظار؟ أهناك شيء غير عادي؟

- مستحيل، إنها كائنات عجيبة.. لا يمكن أن تكون تلك الكائنات التي تحدث عنها الناس.

- ماذا تقصد يا سيدي؟

- ماذا أقول لك يا حسن؟ خذ المنظار، وتأمل سحنة هذه المخلوقات، لا أكاد أصدق عيني.

- يا إلهي... إنها كائنات قبيحة، جسم مغزلي كجسم الأسماك برأس صغير أصلع، لا تفصله عن الجسم رقبة واضحة.. إن وجهها قبيح أشبه بوجه عجوز مشوهة...

- أيمكن أن تكون تلك الكائنات هي عرائس البحر التي ورد ذكرها في القصص والحكايات؟

- لا أدري بماذا أجيبك يا سيدي...

- ما رأيك لو اقتربنا منها وحاولنا صيد إحداها... جهز شبكتك يا حسن..

- إنها جاهزة.. لنهبط الصخرة الآن بهدوء وحذر..

شاهد حسن إحدى عرائس البحر تقف منزوية في منطقة قريبة منهما فهمس إلى أحمد:

- سنحاول اصطياد هذه المخلوقة.. سنلتف عليها، أنت من هذه الجهة، وأنا من الجهة الأخرى ثم نطبق عليها بالشبكة..

- هيا، لنسرع قبل أن تشعر بوجودنا فتهرب.

اقترب أحمد بحذر من مكان (عروس البحر) في حين كان حسن يدور من الجهة الأخرى.

فوجئت الكائنة البحرية بحسن يلقي عليها شبكته القوية.. فتجمدت من الخوف... وأخذت تطلق صيحاتها.. في حين اندفعت مئات المخلوقات إلى المياه مختفية...

تأمل أحمد الكائنة البحرية عن قرب:

- هذه هي حورية البحر إذن...

- إنها في طول الإنسان.. ولكنها كائنة لا تنتمي للبشر بِصلَة.

- أتعلم يا حسن.. حلمت أمس أن (حورية البحر) شدتني من يدي، وقادتني إلى الأعماق ولكن لم أتمكن من الغطس معها.. فكدت أغرق، وأنا أبتلع المياه..

- كنت مضطرباً هذا الصباح.. ها.. فهمت الآن..

- من كثرة ما قرأت من حكايات خرافية عن هذه الكائنات، حلمت أن إحدى الحوريات ابنة ملك البحر تقودني إلى مملكة أبيها في قاع المحيط، حيث العربات التي تجرها جياد البحر... وحيث الكنوز المخبوءة وغابات المرجان الساحرة.

- انظر يا ريس.. إنها تنظر إليك وتبكي...

كان منظراً مؤثراً فعلاً... عروس البحر تطلق آهاتها، وهي تبكي كامرأة فقدت وليدها.

- ما الذي سنفعله معها يا حسن؟

- ألن نصطحبها معنا؟

- لا أعتقد أن بإمكاننا حملها.. فهي ثقيلة كما يبدو.. ثم ما الذي سنستفيده من حملها معنا... ستنفق وتموت بعد أيام.. لبعدها عن قبيلتها.. ترى ما الذي يحزنها؟

- إنها مقيّدة.. بعيدة عن بنات جنسها.. ثم ألم تلحظ أنّها كانت منزوية وحدها حين اصطدناها.. كأنّها فقدت عزيزاً...

- معك حق...

- انظر إلى وجهها القبيح غير المتناسق الأجزاء، العينان

صغيرتان ضيقتان لا تتناسبان مع حجم الوجه.. حمراوان من البكاء على الأرجح.. والأنف كبير أفطس، والشفاه غليظة.. متدلية يكسوها شعر غليظ كالشوك...

- وجلدها الأسود كثير التجاعيد، وكنت أراه في حلمي أبيض ناصعاً.. وزعنفتها سوداء أيضاً.. انظر إلى ثدييها المنحرفين جانباً نحو الإبطين.. يبدوان صغيرين...

- مخلوقة عجيبة سأرفع عنها الشبكة وأتركها تذهب...

- أليست مؤذية؟

- لا أعتقد ذلك أبداً.. ألا تتذكر ما حدث حين أتيت تتجسس عليها.. ورفيقاتها.. وسقطت بين الصخور.. لولا هذه الكائنات لم نعثر عليك.. كانت تلقي الأعشاب البحرية نحوك، كأنها تدلنا عليك...

كانت الكائنة تزعق متلوية في الشبكة.. حين فك حسن الرباط وأطلقها.. فاندفعت نحو البحر وألقت نفسها غاطسة إلى الأعماق..

وما لبثت أن ظهرت من جديد وهي تحرك زعنفتيها الشبيهتين باليدين، كأنها تودع الرجلين وتشكرهما...

- يالها من حيوانات حساسة...

همس أحمد وهو يشرد بنظره بعيداً.. شده حسن من يده...

- الحرية جميلة يا ريس.. عادت إلى حريتها.. ألم ترَ كم كانت سعيدة، وهي تطير نحو البحر.. ملوّحة بزعانفها...

- أتصدّق يا حسن.. لاأزال أذكر حلمي بحورية البحر الجميلة.. بسحنتها اللطيفة ووجهها الجميل وشعرها الأشقر الطويل الذي يغطي صدرها...

- كان حلماً على كل حال...

- تصوَّر.. لم تكن الحياة في الأعماق تقلقني.. بقدر ما كان يقلقني تحوّل شكلي إلى كائن له زعنفة بدلاً من رجلين.. كان ذلك أشبه بكابوس بالنسبة إلي...

- انتظر قليلاً يا سيدي...

أخذ حسن فجأة يخوض في الماء.. مقترباً من صخرة تحيط بها المياه، وعاد بعد لحظات وفي يده (صدفة) جميلة..

- ما أجملها بألوانها البراقة والشمس تنعكس عليها...

- لم تنتبه إلى (عروس البحر) وهي تضعها على الصخرة.. وتنظر في اتجاهنا.. كنت شارداً...

- الكائنة التي أطلقناها قبل قليل؟

- نعم.. أهدتنا هذه (الصدفة) الجميلة تعبيراً عن الشكر لأننا أطلقناها، ولم نحتفظ بها.

- أمر عجيب فعلاً...

انطلق الرجلان عائدين إلى المعسكر.. اخترقا الغابة الصغيرة.. وقد نجح حسن في الإمساك ببيغاء رماديّ اللون.. ذي عرف متحرك.. وكان سعيداً وهو يداعبه... لفتت نظرهما حركته، وسمعا وهما يقتربان من المعسكر، ضجّة وصخباً.. كان البحارة متجمعين حول أحدهم الذي كان يتكلم إليهم بصوت عال:

- ما الذي يجري هناك؟

- لا أدري يا سيدي...

وقف البحارة حالما رأوا الريس أحمد عائداً مع حسن.

- لماذا تتجمعون هكذا؟

- إنه يروي لنا الحادثة.. إنها حادثة عجيبة، يا ريس...

- حسناً اروِ لنا الحكاية من جديد يا دعبوس.

- آه يا ريس.. رأيتها بعيني هاتين...

- من هذه التي رأيتها؟ احك لنا القصة...

- كنا، أنا واثنان من الرجال، في رحلة صيد.. لنحضر بعض اللحوم الطازجة للمعسكر، سمعنا صياحاً وضحكات من الجهة الجنوبية من الجزيرة.. استوقفتنا الضحكات التي تكررت.. واتجهنا صوب مصدرها...

- صوب الجهة الجنوبية؟

- نعم.. ومن بين الأجمات الكثيفة هنا.. رأينا مجموعة من عرائس البحر.. طلبت من رفيقي أن ينتظرني.. فسأحاول الاقتراب من المكان..

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- اقتربت بحذر شديد، وأنا أدور خلف الصخور.. رأيت إحداهن على صخرة عالية.. كانت تغني...

- تغني؟

- نعم كان غناء شجياً، أطربني.. فاقتربت منها بهدوء، وكأنها شعرت بوجودي.. فالتفتت، وقد توقفت عن الغناء...

- وقفزت في البحر؟

- لا تأملتني بعينين سوداوين وضحكت...

- يالك من كاذب يا دعبوس.. تحكي قصصاً من نسج خيالك...

- لا يا سيدي.. أقسم لك.

- حسناً أكمل.

- قالت لي.. كيف حالك يا دعبوس؟ استغربت.. وكيف تعرفين اسمي.. أيتها الحورية الجميلة؟ قالت: أعرف عنكم كل شيء.. جئتم إلى هذه الجزيرة للمرة الثانية.. من أجل الصيد.. وريسكم أحمد أتى لغرض آخر...

- ماذا تقول؟

- هكذا قالت يا سيدي...

- حسناً.. أكمل...

- سألتها ما هو الغرض من مجيء ريّسنا إلى هنا.. قال: جاء لأجل أن يصطاد (حورية بحر) كان يحلم بها.. تأتيه في المنام...

قاطعه أحمد مستغرباً: - هل قالت لك ذلك فعلاً...

- نعم يا سيدي.. ولماذا أكذب؟

- أكمل قصتك الغريبة يا دعبوس.. وماذا حدث بعد ذلك؟

- أعطتني محارة.. وقالت لي: حينما تعود إلى هنا في المرة القادمة سأعطيك لؤلؤة جميلة.. وحين قلت لها: أعطني اللؤلؤة الآن، ضحكت وقالت: بل ستعود يا دعبوس أنت والريس أحمد.. وكل بحارة هذه السفينة...

- وماذا قالت لك أيضاً...؟

- لم تقل شيئاً، قذفت لي محارة جميلة.. ثم قفزت إلى البحر، واختفت وأنا مذهول غير مصدق.. هاهي المحارة يا سيدي...

أمسك حسن بيد دعبوس وشده نحوه:

- من كان بصحبتك يا دعبوس؟

- هذان الرجلان.. اسألهما.. صدقني لم أكذب. قلت الحقيقة..

اقترب أحد الرجلين من حسن:

- رافقناه ورأينا عرائس البحر فعلاً...

- وسمعتما الغناء؟

- لا يا سيدي.. انتظرنا دعبوس الذي اختفى بين الصخور ثم عاد ومعه هذه المحارة.. والذهول على وجهه...

كان أحمد مستغرباً كلام دعبوس عن حورية البحر التي رآها في حلمه...

انزوى وحسن قرب الشاطئ: - ماذا تقول فيما سمعت يا حسن؟

- لست أدري...

- ألم نر نحن عرائس البحر؟ إنها حيوانات قبيحة.

وهذا ما يدهشني في رواية دعبوس...

- أيمكن أن يكون قد رأى نوعاً آخر من عرائس البحر؟

- كيف؟ لا أعتقد أن هناك أنواعاً أخرى...

- ولكن يا حسن.. كيف عرف (دعبوس) أنني عدت إلى هذه الجزيرة من أجل عروس بحر كنت أراها في منامي... لا يعرف هذا سوى واحد مقرّب مني.. هو أنت يا حسن.

- أمعقول يا سيدي أن أحكي لهم أحاديثك إلي؟

- أنت كاتم أسراري، ولا يعرف أحد شيئاً عن حياتي بتفاصيلها سواك...

- تأكد أني لم أحدّث أحداً بشيء قلته لي أبداً...

- إذن كيف؟

- ربما سمع دعبوس حديثاً من أحاديثنا بالمصادفة.

- ممكن...

- لأنني لم أنبس بحرف عما قلته لي.

- حسناً.. ما رأيك أن نذهب إلى الجهة الجنوبية من الجزيرة، لنتعرف تلك المنطقة التي حكى عنها دعبوس.. لنتأكد أنه لا وجود لسوى نوع واحد من عرائس البحر...

- كما تشاء يا سيدي...

* * *

انطلقا من جديد صوب الجهة الجنوبية، كانت الأشجار متكاثفة في طريقهما مما اضطرهما إلى كسر بعض الأغصان التي عرقلت سيرهما.. وبعد دقائق والصمت يلفهما... أشرفا على الشاطئ الجنوبي للجزيرة.. كان شاطئاً صخرياً أيضاً، به كهوف بحرية صغيرة.

- لا أرى شيئاً يا ريس.. الصخور تبدو خالية.

- سنبقى هنا بعض الوقت قد تظهر العرائس بعد قليل...

- سنتأخر على الرجال.. قلت لهم إنك تبغي صيد طير نادر رأيته في الصباح.. ولكن الوقت لم يسعفك لصيده.

- بدوا غير مقتنعين.. وخاصة (دعبوس) الذي نظر إلينا طويلاً..

- إنه يعتقد أننا سنأتي إلى هذه الجهة، لأننا لم نصدق حكايته...

- قرأت الشك في عينيه.

- وماذا سنفعل الآن يا ريس.. لا أثر لعرائس البحر...

- سننتظر قليلاً يا حسن.. قلت لك.

- أعتقد أننا لو انتظرنا النهار بطوله لن نرى عرائس البحر...

- لماذا؟

- لأن الصباح هو خير الأوقات لوجودهما...

- أمتأكد من ذلك...

- قلت أعتقد.. ولم أقل «متأكد»

- أتذكر قول (دعبوس): إن حورية البحر قالت له: إننا سنعود إلى هنا مرة أخرى... أيمكن أن نعود يا حسن؟

- لا أدري يا سيدي...

- أعتقد أننا سنعود إلى هنا في رحلتنا البحرية القادمة.

- لرؤية عرائس البحر من جديد؟

- نعم مادام الفضول يستبد بي من جديد.. ومادمت لم أتوصل لحلّ اللغز كاملاً.

- ولكنك أمسكت بإحدى تلك المخلوقات وتعرفت بها من كثب، ماذا تطلب أكثر من ذلك؟

- أريد أن أتأكد أن لا أنواع أخرى لعرائس البحر، غير النوع الذي عاينته.

وهكذا عاد أحمد وحسن إلى السفينة من جديد... وفي ذهن أحمد أفكار كثيرة عن عرائس البحر.. فبعد أن كان مرتاحاً لحل اللغز.. واصطاد عروس بحر حقيقية.. شتتت قصة دعبوس أفكاره من جديد... ولكن عودته إلى (عدن) كانت كافية لتعريفه بحقيقة عرائس البحر كما حكى عنها علماء الأحياء البحرية...

كانت كل القصص الخرافية التي حكاها الناس عن حوريات البحر أو عرائس البحر أو جنيات البحر مصدرها البحارة الذين كانوا يشاهدون تلك المخلوقات، وهي ترضع صغارها بعطف وحنان..

كانت تبدو لهم عن بعد جميلة المنظر متناسقة الحركات.. ولكنها في الحقيقة كانت مخلوقات مشوهة المعالم...

وتسمى عرائس البحر أحياناً بأبقار البحر وهي تنتمي إلى فصيلة الثدييات، هجرت اليابسة وطابت لها الحياة في الماء.. ونزلت البحر لتشارك الأسماك الحياة فيه... فاختفت أطرافها الخلفية، وتكوّنت لها في نهاية الذيل زعنفة أفقية تساعدها على السباحة والصعود إلى سطح الماء واستنشاق الهواء...

وقد اختفى الغطاء الشعري الذي كان يكسو الجلد ولم يبق سوى القليل من الشعر المتناثر... كما تكونت تحت الجلد طبقة سميكة من الشحم تحفظ درجة حرارة الجسم.. وهي تتغذى على الأعشاب والنباتات المائية...

ولما كان اعتمادها على مثل هذا الغذاء يحتم أن تبقى في الأعماق طويلاً.. فقد أصبحت عظامها قويّة صلبة.. وهي تمضغ العشب جيداً قبل ابتلاعه وهذا ما يجعلها تبقى تحت الماء طويلاً... لذلك فأسنانها عريضة كأسنان المجترّات.. وتمتاز بوجود شفاه كبيرة متحركة حول أفواهها لمسك الأعشاب البحرية...

وهناك نوع يعيش في المحيط الهندي من النوع الذي رآه أحمد وحسن في الجزيرة.. ونوع آخر يعيش في المحيط الأطلسي، وحول مصبات الأنهار في أمريكا وإفريقية...

طول هذين النوعين بين مترين وثلاثة أمتار.. وهناك نوع ثالث من أبقار البحر يعيش في بحر (بهرنج) الذي يمتد بين سيبريا وآلاسكا.. يصل طول الواحدة من هذا النوع إلى سبعة أمتار...

وقد انقرض هذا النوع تقريباً بسبب إقبال الصيادين الروس على صيده للحمه الشهي.. وخاصة أن أبقار البحر حيوانات نباتية كالمجترّات تماماً...

وأبقار البحر عموماً تتعرض حالياً للانقراض.. رغم مناشدة المنظمات الدولية للصيادين أن يحفظوا هذه المخلوقات من الانقراض.. لأن تكاثرها بطيء مثل كل الثدييات.. لا يعوض ما يصيده الإنسان من أعدادها الكبيرة، لذلك بدأ أنصار الحفاظ على الحيوان بمناشدة الدول التي تتكاثر فيها مثل هذه المخلوقات أن تصدر قوانين صارمة ضد إبادة هذا المخلوق الحسّاس المليء بالعطف والحنان...

اتخذت عرائس البحر من البحر مستقراً لها.. تتنقل فيه من مكان إلى آخر تصارع أمواجه العاتية، وتستلقي على صخور شواطئه مستمتعة بأشعة الشمس ضمن فصل الشتاء، وكثيراً ما تفد تلك المخلوقات إلى شواطئ الجزيرة غير المأهولة، حيث تستلقي على الرمال الساخنة بعض الوقت قبل أن تعود إلى البحر...

أسرار من مدينة الحكمة

- ١ -

في ذلك اليوم الذي لن ينساه، كان يطير بطائرته الحربية فوق منطقة من الصحراء العربية حين سمع برج المراقبة يأمره اكتشاف هدف مجهول، حدد له البرج موقعه واتجاهه، وطمأنه أن سرباً من المقاتلات ستلحق به فوراً..

نظر إلى مؤشر الوقود في الطائرة فوجد أن ما فيه من وقود يمكنه من القيام بالمهمة دون خوف من نفاذه، كان يراقب الهدف على شاشة (الرادار) وهو يتوجه نحوه منصتاً إلى تعليمات برج المراقبة، حين أصبحت شاشة (الرادار) أمامه فجأة، بيضاء تماماً وانقطع الاتصال مع البرج، علم أن هناك تشويشاً مركزاً عليه، لكي يفقد أثر الهدف، ولكنه قرر فيما بينه وبين نفسه، أن يتابع الطيران في الاتجاه نفسه، عسى أن يلمح الهدف المجهول بعينيه المجردتين، ولكن حساباته، كانت خاطئة وأوشك الوقود على النفاد، دون أن يعثر على أي أثر للهدف. وجد نفسه فوق

الصحراء وقد ابتعد كثيراً عن القاعدة وفجأة أحس أن الطائرة تهتز اهتزازاً عنيفاً، وما لبثت أن أصبحت كالريشة في مهب الريح، لم يعد يملك زمام القيادة كان يخضع لجاذبية مغناطيس ضخم..

لم يكن أمامه الخيار، عليه أن يقفز بالمظلة وهكذا فعل.. وبعد ثوان كان يتأرجح بحبالها وهو يهبط ببطء، رأى طائرته تهوي على الأرض وتنفجر، أحس أنه في ورطة حقيقية في صحراء مترامية الأطراف، لا أثر فيها لكائن حي. هبط بمهارة على الرمال وتخلص بهدوء من المظلة، كان الحر شديداً والشمس في منتصف الظهيرة..

لم يدر في أية جهة يتوجه، انتابته الحيرة والتردد، وهو يقلب النظر حوله، ثم اختار اتجاهاً خيل إليه أنه سيوصله إلى منطقة مسكونة، نفذت حرارة الرمال من حذائه المطاطي، فأحس كأنه يمشي على جمر، وبين الفينة والفينة كان يرمق السماء بعينيه عله يرى طائرة من طائرات قاعدته تبحث عنه، دقائق قليلة وأحس بالتعب، يا إلهي لا أثر لنسمة هواء، حرارة قاتلة كالجحيم المستعر..

كان القلق واليأس قد سيطر عليه وهو يسير والتعب قد أخذ

به وفجأة لمح شيئاً يبرق عن بعد، أحس بالنشاط، وقد اشتد ظمؤه، ولكن فكرة خبيثة أزعجته، وقد برقت في ذهنه فجأة، قد يكون سراباً، ولكن اللمعان ازداد كأنه مياه متدفقة جارية.. نظر في جهة أخرى فرأى لمعاناً جديداً، فيمَّم صوبه، وقد أيقن أن الصحراء تداعبه، فليس السراب في كل مكان، ظل على هذه الحالة يتخبط في مسيره حتى أحس أن لا طاقة له على متابعة المسير في هذه الصحراء المترامية الأطراف، حيث لا شيء سوى الشمس المتوهجة والرمال الحارقة والهواء الساكن سكون الموت.. غشى الوهج عينيه فرأى قبل أن يفقد الوعي أنه وسط حلقة من المتوحشين يرقصون حوله، وقد دفعوه إلى نار متقدة في وسطهم لينقلب في أتونها..

* * *

- ٢ -

كان جسمه متيبساً والصداع يكاد يفلق رأسه، حين فتح عينيه وجد نفسه في حجرة صغيرة، يتمدد على سريره، وقربه تجلس فتاة في مقتبل العمر تنظر إليه، تأوه قليلاً وهو يحاول الاعتدال في الفراش.. أين أنا؟

- لا تخف أنت في أمان.

- من أنت؟

- ستعرف كل شيء فيما بعد، تناول هذا الدواء فسيريحك..

قدمت له (كبسولة صغيرة) وكأساً من الماء، أحس بالاطمئنان إليها، كانت سمراء اللون طويلة القامة لها ابتسامة ساحرة، فردت الغطاء فوقه وأحس بيدها تربت على ظهره، فغرق من جديد في النوم.

حين صحا وجد كهلاً أشيب بلحية صغيرة، يحدق فيه، وإلى جانبه كانت الفتاة تقف وفي يدها جهاز غريب..

- حالتك الصحية جيدة، الآن باستطاعتنا أن نتبادل الحديث..

نظر حوله مستغرباً، لِمَ غيرتم السرير الذي كنت أنام عليه.

- ولكن من أنتم؟ وأين أنا الآن؟

- أنت في مدينة الحكمة.

- ماذا؟

- مدينة الحكمة نعم، لا تستغرب كثيراً، سأشرح لك كل شيء..

- كيف عثرتم علي، وكيف أحضرتموني إلى هنا؟

- كنت في الصحراء فاقد الوعي، وكنا نراقبك بوساطة أجهزتنا المتلفزة، وأنت تهبط بالمظلة، وقد أحضرناك إلى هنا بوساطة إحدى حواماتنا..

- لباسكم كما يبدو موحد، رغم أنكم لا تضعون خوذات حديدية على رؤوسكم، هل أنتم تنقبون عن النفط هنا.

- يا صديقي لسنا من شركات التنقيب، بل نحن ننتمي إلى مجموعة كبيرة هنا، تعيش تحت الصحراء في مدينة ضخمة اسمها (مدينة الحكمة).. لأن ساكنيها يتعاونون في سبيل بناء مجتمع لا مكان فيه سوى للحكمة والعقل..

- هنا تحت الأرض الصحراء؟..

- نعم تعبنا كثيراً حتى أتممنا بناء مجمعات مدينتنا ومخابرها الضخمة..

- تتكلمين العربية جيداً، أنتم عرب؟

- نعم مجموعة من العلماء والباحثين العرب، تركوا الأمكنة التي يعملون بها في الدول المتطورة التي كانت تستغل نبوغهم لخدمة مآربها، وتجمعنا في هذه البقعة الخالية من الصحراء (نبني مدينة للحكمة).

- حلم يبدو مستحيلاً.

- كان كذلك في البداية، ولكن إصرارنا وتضحياتنا الكبيرة جعلته حقيقة..

- وكيف خطر لكم مثل هذا الخاطر؟

- أتت الفكرة في البداية من نكتة قالها أحدنا، ونحن في مقهى إحدى المدن الأمريكية، كان يمزح، ولكن مزاحه جعلنا نستفيق على روعة فكرته، وقال: لم لا نجتمع ونكوّن بعقولنا حضارة عربية جديدة، بدلاً من أن نساهم في بناء حضارات غيرنا؟ قال له أحدنا: ولكن كيف؟ والوطن مجزأ والخلافات بين مناطقه في ازدياد، فكر ضاحكاً، وقال في استخفاف: نبني حضارة تحت الصحراء حتى لا يكتشفنا أحد، ويخرب ما نبنيه، وهكذا غادرنا

المقهى ونحن مشحونون بهذه الفكرة العجيبة فعلاً، وما الذي يمنعنا من تحقيقها إذا اخترنا منطقة من الصحراء الخالية البعيدة؟ قد لا يخطر على بال أحد أن يترصدنا، وقد نتمكن من تحقيق هذا الحلم، ولكن كيف ندخل؟ هذا السؤال حيَّرنا كثيراً حتى عثرنا على الحل: شركة تنقب عن الذهب في الصحراء الخالية، وهي تتحمل مسؤولية الخسارة، وهذا ما جرى فعلاً، كان سهلاً علينا أن ندخل المنطقة بجوازات سفر أجنبية كخبراء في شركة غربية لها شعاراتها ورأسمالها وعملها..

وكنا حذرين في التعامل مع الناس من حولنا، وهكذا بدأنا في اختيار المنطقة ثم في تنفيذ فكرتنا، وفي حوزتنا الآلات الضخمة والأجهزة التي نحتاجها.. بنينا أنفاقاً تحت أرض الصحراء، أخذنا نجهزها ونوسعها ونضع فيها كل لوازم الحياة، ولم تمض سنتان حتى أتممنا بناء القسم الأكبر منها، وقد كلفنا ذلك مدخرات عمرنا من المال.. وبالتدريج بدأ العلماء والباحثون العرب يتدفقون من الدول المتطورة التي يعملون بها ويختفون في سراديب المدينة مع عائلاتهم وأولادهم.

- من رغب القدوم قبلتموه فوراً؟

- استنبطنا جهازاً لاختبار النفس وطبقنا اختباراته على

القادمين، فمن نجح عاش معنا، ومن فشل في الاختبار أسدلنا ستاراً من النسيان على ذاكرته وأبعدناه.

أما عن الأمن الذي طبقناه حول مدينتنا، فقد نجحنا في التشويش على الأقمار الصناعية، ونجحنا في بث أقوى موجات التشويش منعاً لأجهزة التصوير والتجسس أن تكشفنا..

- وماذا تفعلون بي الآن.

- ستذهب لمقابلة المجلس الاستشاري، وبعدها ترافقك ريم في رحلة تتعرف من خلالها المدينة.

- أنتم مطمئنون لي؟ أتثقون بي؟

- بالطبع، وإلا ما أخبرناك بقصة المدينة.

- كيف؟

- لدينا أجهزة دقيقة لكشف الكذب، ومعرفة الحيل، والغريزة العدوانية، والتعاون وحب البشر.

- أجريتم علي هذه الاختبارات؟

- بالطبع.

- قد لا أرغب في العيش معكم، لم عجلتم وحدثتموني بأسراركم؟..

ضحك الكهل ثم أجاب بهدوء - ستعيش بيننا ستة أشهر على الأقل، قبل أن نسمح لك بالخروج إلى العالم.

- ستة أشهر؟

- نعم خلال هذه الأشهر ستتعرف نبل الهدف الذي نعمل من أجله، وهو بناء حضارة مسالمة وديعة، بعيداً عن قوى الاستغلال والغدر.

- وبعد هذه الأشهر الستة ماذا يمكنني أن أفعل؟ قد نسمح لك ضمن وفد علمي بالخروج لزيارة بعض المناطق.

- وأهلي.

- يجب أن تنساهم.

- كيف وأنا لاأزال حياً؟

- أنت عندهم ميت الآن، إذ إننا سمعنا خبر اكتشاف طائرتك المحطمة بالإذاعة، هذا يعني أنك في عرفهم الآن رجل ميت..

- قد يعثرون على المظلة دون أن يعثروا على جثتي؟

- من هذه الناحية لا تقلق فالعواصف الرملية الشديدة التي تهب في المنطقة كل فترة تغطي كل شيء..

- ولكنني طيّار حربي؟..

- لست عدوانياً، من يدافع عن بلده ضد الأعداء لا يملك غريزة العدوان، وأنت أيضاً عازب ليست لك زوجة أو أطفال صغار.

- كيف عرفتم؟

- ضحك الكهل من جديد - عمل سهل بالنسبة إلينا.

فَكَّر قليلاً، وهو يتناول الثوب الرمادي الذي قدمته له الفتاة وطلبت أن يرتديه. في زاوية من الغرفة فكر في نفسه، ربما كانت الطريقة الوحيدة لديهم لحفظ أسرارهم أن يمنعوا القادم الجديد الذي تقبله الأجهزة من الخروج إلى السطح. لاشك أن الكثيرين منهم قد مروا بظروف صعبة متعبة.

خرج الثلاثة من الغرفة، هبطوا سلماً حديدياً عريضاً ودخلوا حجرة زجاجية بها مقاعد أغلق بابها آلياً ثم تحركت بسرعة بعد أن ضغط الكهل على أحد أزرارها. كانت تسير دون ارتجاج كأنها معلقة في الجو.. رأى كثيراً من الأنوار، على جانبيه أجهزة إلكترونية ضخمة وأشباح متطاولة تتحرك بسرعة لم يتمكن من تمييز أشكالها.

* * *

- ٣ -

توقفت الحجرة بهدوء، وفتح الباب، وجد نفسه أمام باب عريض متطاول يفتح آلياً، والكهل يشير إليه بالدخول، وريم تبتسم له ابتسامتها الساحرة، دخلوا فأغلق الباب خلفهم، ساروا في ممر مغطى بموكيت بلون أخضر عشبي، وانفتح باب آلي آخر، دخلوه فوجد نفسه في قاعة واسعة، في وسطها منضدة دائرية ضخمة حولها يجلس خليط من الناس في أعمار متقاربة تتعدى الخمسين.

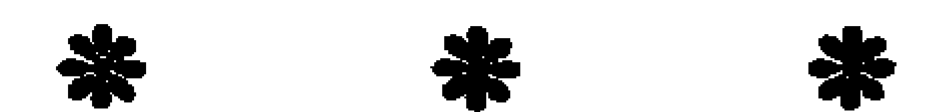
وقف رجل في الستين من عمره، حليق الذقن، له شارب كث، ويضع نظارات على عينيه.

- أهلاً بك يا سامي ضيفاً على مدينتنا.. استغرب معرفتهم باسمه.. وارتبك وقد مدَّ له الرجل يده ليصافحه، شده من يده وأجلسه على أحد المقاعد قربه..

جلست ريم في المقعد المجاور له، وجلس رفيقهم الكهل إلى الطرف الآخر من المنضدة، تحدث الرجل، كان هو رئيس المجلس الاستشاري لمدينة الحكمة.

رحّب بسامي من جديد، وأكد أهمية وجوده بينهم، وخاصة أن له دوراً كبيراً في قسم التجارب الفضائية، لأنه طيار حربي متمرس.. وأن القسم المذكور قد يقوم بتجارب للانطلاق نحو الفضاء قريباً.. وتحدث عن المدينة وأقسامها المختلفة، وعن الناس الذين يعملون فيها ليل نهار في البحث وتطوير الدراسات.. وعن المختبرات الحديثة والكشف عن أسرار عملية جديدة غير معروفة لدى علماء العالم في الخارج.

كان ينصت مذهولاً لحديثه، وهو يراقب أعضاء المجلس الذين غلفت الابتسامات وجوههم الواثقة.. أحس بيد تضغط على يده، كانت ريم تشجعه بابتسامتها الساحرة التي هدأت من اضطرابه. أحس أنه يشهد حلماً صعب التصديق، ولكنه ممتع، جميل ودَّ أن يظل يسبح فيه إلى آخر العمر.



- ٤ -

سأله الكهل، وهم يغادرون المجلس الاستشاري: - كيف كان انطباعك؟

- أكاد لا أصدق نفسي، كأنني في حلم.

- سترافقك ريم في جولة على أقسام المدينة، تتعرف فيها بعالمها الخاص قبل أن تبدأ عملك الذي حدده لك المجلس الاستشاري..

ثم وجه كلامه للفتاة - سأتركه لك الآن يا ابنتي، وأنا واثق من قدرتك على القيام بالمهمة جيداً.

كيف فاته أن الكهل هو والد الفتاة رغم الشبه الواضح بينهما؟

انقاد طائعاً إليها ، وهي تدخله إلى حجرة صغيرة، تنطلق بهما بهدوء عبر أنفاق المدينة وسراديبها ، كانت جولة سريعة عبر السراديب والأنفاق، لم يدخلا خلالها لزيارة أي من الأقسام العلمية. قالت له ريم:

قد يمر وقت طويل قبل أن تتعرف الأنفاق دون ملاحظة أرقامها..

- ولكنها متشابهة كثيراً..

- ستميز اختلافها فيما بعد..

سألها وهما يخرجان من الحجرة الزجاجية - منذ متى لم تخرجي من هنا..

- تقصد خارج المدينة، خرجت عدة مرات وزرت بلداناً عديدة في رحلات اطلاعية..

- أسمح لك بذلك؟

- لم لا؟ ألم تسمع ما قاله والدي أن بإمكانك الخروج بعد ستة أشهر ضمن وفود ولجان علمية، لاشيء يمنع من ممارسة حريتك هنا، حتى في الخروج إلى العالم العلوي، بعد فترة ستتعلق بالحياة هنا، بهدوئها وحيويتها وبعدها عن النفاق والغدر والجريمة والجشع كما يفعل الناس في الخارج.

- ألست متزوجة..

ابتسمت ابتسامتها الساحرة التي تَعَشَّقها : - لست متقدمة في السن كثيراً..

- أهناك سن معينة للزواج هنا؟

- لا.. ولكني لم ألتق بعد بالإنسان الذي يناسبني.

- ومن هو الإنسان الذي يناسبك..

- ابتسمت من جديد - أنت متعب الآن، حاول أن تنام قليلاً، وسأوقظك عند الظهر لتتناول الغداء معنا، وتتعرف بوالدتي وأخي..

- أهلك كلهم هنا؟

- نعم..

- ولكن كيف تتعرفون الوقت.

- هناك ساعات إلكترونية في كل مكان حسب التوقيت على سطح الأرض فوقنا..

- وكيف تميزون بين الواحدة ظهراً والواحدة ليلاً؟

- الواحدة ليلاً هي الواحدة والواحدة ظهراً هي الثالثة عشرة..

- ها.. فهمت؟

- سأجيبك عن كل تساؤلاتك فيما بعد، ادخل الآن واسترح وسوف أعود إليك عند الظهر..

دخل الجناح الذي خصص له.. كان مكوناً من غرفتين وصالة واسعة، وقد انتشرت رفوف الكتب المنوعة والأجهزة الإلكترونية، ضغط على جهاز تلفاز كان يعرض فلماً عن الحياة في القطب، غَيَّر المحطة، كانت المحطة الجديدة تعرض فلماً عن الحرب النووية، غَيَّرها أيضاً شدته للموشحات التي تغنيها إحدى المطربات، والفتيات حولها يرقصن السماح، تلك الرقصة التي كان يستمتع بها في مدينته البعيدة..

تمدد على الكنبة يفكر كأنه في حلم فعلاً؟ ترى ماذا يفعل أهله الآن؟

لاريب أن أمه تقطع نفسها عليه من البكاء.. أحس بالحزن وهو يتذكر وجهها الطافح بالحنان، ووجوه إخوته الصغار، ووجه والده الصارم القسمات.. لاسبيل الآن للعودة إليهم، يجب أن يكمل ما بدأه مرغماً في هذه المدينة العجيبة، انتابته مشاعر من الحزن، وهو يتذكر رفاقه في القاعدة وسمرهم ولهوهم، ولكن صورة ريم بابتسامتها الساحرة خففت عنه وحدته، فغفا مطمئن البال وقد اختلطت في ذهنه المشاعر..

* * *

- ٥ -

في صباح اليوم التالي جاءته ريم، كانت ترفل بثوب حريري مطرز من صنع فتيات مدينة الحكمة، اللواتي يعملن في أوقات فراغهن بالتطريز العربي بنقوشه البديعة، بدت فاتنة بقامتها الهيفاء وابتسامتها الساحرة، قالت له: سنزور اليوم الأقسام العلمية في المدينة قبل أن أرافقك إلى منزلنا لتتعرف بوالدتي وإخوتي..

وهكذا بدأ زيارته لقسم مولدات الطاقة، وهي مولدات ضخمة تغذي المدينة بالماء والكهرباء والأوكسجين اللازم للتنفس، لأن المدينة تحتاج باستمرار إلى هواء نقي يضخ بمضخات خاصة وأجهزة متطورة، سألها: ومن أين تحصلون على الوقود الذي يغذي هذه الأجهزة؟

- من البترول الذي نسحبه من الآبار الموجودة في الصحراء حولنا..

- يبدو لي أن درجة الحرارة ثابتة تقريباً.

- بل هي ثابتة صيفاً شتاء تتراوح بين (٢٠) و (٢٥) درجة

مئوية ليلاً ونهاراً، دخلا قسم النباتات والحدائق الصنعية، رأى سامي أمامه حدائق مرتبة بها نباتات وورود عطرة، وأشجار مرتفعة واستغرب أن إنارتها كاملة كأن الشمس تنيرها..

سألها: أهذه الورود صنعية.. ضحكت ريم قبل أن تجيبه: - كيف ألا تشم روائحها..

- بلى ولكن..

- أتشم روائحها وتسأل هل هي صنعية؟

- ولكن كيف تمكنوا من غرسها وغرس هذه الأشجار والنباتات تحت الأرض.

نظرت إليه بهدوء، ثم قالت: كل شيء هين على العلم.. مادام الإنسان يفكر جيداً فسيصل إلى نتائج جيدة، صحيح كان الأمر صعباً في البداية، إذ إن بعض النباتات تحتاج إلى تربة خاصة ودرجة حرارة معينة وضغط خاص إضافة إلى الضوء.. أتعلم أن الضوء الساقط على النبات له مواصفات ضوء الشمس ذاته..؟!

- كيف؟

- في البدء اعتمدنا على المرايا والقنوات العاكسة لضوء الشمس حتى توصلنا أخيراً لصنع مصادر أو منابع للضوء، تصدر نوعية هذه الأشعة نفسها إضافة إلى درجة حرارة معينة.

- عملية صعبة جداً.

- بالطبع، انظر إلى هذه النباتات ذات الأوراق المتطاولة، حيث تقترب منها تحس بحرارة عالية حولها، هي نباتات لا تعيش إلا على خط الاستواء وهي نباتات طبية تفيد جداً في العلاج، وحتى تنبت بشكل جيد هنا، وضعناها في جو قريب من جو خط الاستواء..

- وهذه النباتات الشبيهة بالصبار؟

- هي ليست صباراً.

- يبدو نباتاً شوكياً مزروعاً في منطقة رملية.

- ولكن لونه يختلف عن الصبار.

- صحيح يبدو لونه أخضر مختلطاً بالأسود، وهناك بقع بنية عليه، ولكن له أشواكاً كبيرة.

- والضوء المسلط عليه، ألا يبدو ضعيفاً؟

- نعم.. ولكن ما السبب؟

- لأنه كان في منطقة ضوءها الآتي من الشمس أضعف بكثير من الضوء الآتي للأرض..

- ماذا تعني، أكان نامياً في منطقة القطب مثلاً..

- أتراه محاطاً بالثلج..؟

- لا.. رمل فقط.

- هو نبات مريخي بدائي أحضرته إحدى مركباتنا من كوكب المريخ..

- ماذا تقولين؟ من المريخ؟ أرجوك لا تسخري مني..

- أنا لا أسخر منك، ولا نعرف السخرية من أحد هنا.

هو فعلاً نبات مريخي أحضرته إحدى محطات الأبحاث الفضائية..

- أي إنكم غزوتم الفضاء؟

- نعم.. أرسلنا سفناً كثيرة للفضاء، ولايزال بعضها يدور حول كواكب قريبة منا..

- يا إلهي، أيمكن هذا؟ شيء لا يصدق.

- يا صديقي سترى أشياء عجيبة في مدينتنا، وعندما ستزور قسم الهندسة الفضائية ستزداد دهشتك.

- حدثيني كيف غزوتم الفضاء.

- عندما نزور قسم الهندسة الفضائية ستعرف كل شيء.

- حسناً.. ولكن ماذا عن هذه الشجرة الضخمة؟

كانت شجرة متفرعة بجذع ضخم وأغصان ممتدة إلى ارتفاعات كبيرة، تكاد تصل سقف المدينة، أجابت إنها من أضخم أشجار العالم، عمرها صغير الآن، وحينما تكبر ستزداد طولاً وتفرعاً في الأغصان، وسيزداد جذعها ضخامة، اسمها شجرة (البايون) وأضخم أنواعها يعيش في مدينة راس جنوب الهند.

- قد تهدد سقف المدينة الصنعي.

- هناك من يهتم بها، وحينما ستصل أغصانها العالية إلى السقف سيشذبونها، لفت نظره كثرة المقاعد الموزعة بين الأشجار.. وكأنها شعرت بذلك فقالت:

الحدائق تمتلئ بالزوار كل أسبوع.

- أهناك عطلة رسمية في المدينة..

- بالطبع.

- ويتوقف العمل تماماً؟

- مستحيل أن يتوقف العمل، القسم الأكبر من العاملين

فقط، هم الذين يعطلون في يوم العطلة الرسمي، وخاصة من لديهم زوجة وأطفال.

- وباقي الناس؟

- لهم أنظمة خاصة يعطلون بها بالتناوب، كل فرد في مدينتنا يرتاح يوماً في الأسبوع على الأقل.

- وكيف تعرفون أيام الأسبوع مادام كل شيء صنعياً لا ليل ولا نهار؟

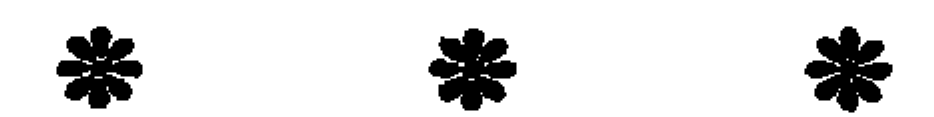
- كما ذكرت لك من قبل، نفرق بين الساعة الواحدة صباحاً والواحدة ظهراً إذ إن الواحدة ظهراً هي الثالثة عشرة والثانية هي الرابعة عشرة وهكذا.. وفي وقت الغروب نفسه على الأرض تبدأ الأضواء القوية التي توازي ضوء الشمس بالخفوت شيئاً فشيئاً حتى تصبح في قوة أضواء الشوارع على الأرض في الليل..

وماذا عن فصول السنة؟

- في بعض المناطق تمر فصول السنة بالتتالي بأجوائها نفسها على الأرض، يعني في قسم الحدائق الصنعية هنا يمر الربيع فتزهر النباتات والأزهار، ثم الصيف الحار ثم الخريف حيث تتعرى بعض الأشجار من أوراقها، ثم يأتي الشتاء المحمل بالأمطار الصناعية.

- وهذا ينطبق على الزواحف التي تعيش في المختبرات، أليس كذلك؟

- بلى، وينطبق أيضاً على حيوانات المناطق الباردة التي تعيش فوق الثلوج كالدب القطبي واللاما والفقم والبطريق، وكذلك الأمر بالنسبة إلى حيوانات المناطق الحارة.



- ٦ -

كانت تتكلم بحماسة وهما يتمشيان في ممرات الحدائق، أحس بالتعب فاستأذنها في أن يستريح قليلاً، ثم جلسا على أحد المقاعد تحت شجرة لوز، سألها - لم أسألك عن عملك الرئيسي في المدينة.

قالت: - خبيرة في تاريخ المدينة وأقسامها، ومسؤولة عن قسم الرصد التلفازي في مركز الاستقبال الراداري..

- رصد المنطقة حول المدينة؟

- ليس فقط المنطقة حول المدينة، بل رصد الأقمار الصناعية، ومحطات الفضاء الدائرة حول الأرض وفي الفضاء الخارجي، المحطات والأقمار الصناعية التابعة لنا.

- أهناك الكثير من الأقمار الصناعية ومحطات الفضاء عندكم؟

- ما يكفينا للبحث والاستطلاع، ضغطت على زر معلق على صدرها، وبعد دقائق حضر صبي، ومعه صينية بكأسين من شراب أبيض، إنه سائل جوز الهند المخلوط بالحليب..

كان لذيذ الطعم، تَجَرَّعه دفعة واحدة.

دخلا قسم الحشرات، حيث امتدت مئات الأقفاص تحوي أنواعاً غريبة من الحشرات التي ارتفع صريرها، وهما يتغلغلان بينها.

- هناك (٨٠٠) ألف نوع من الحشرات تعيش على الأرض.

- أكل هذه الأنواع هنا؟

- بالطبع لا، إذ من المستحيل على مدينتنا استيعاب مثل هذا العدد، لدينا فقط الحشرات المفيدة في حقول التجارب، كل قفص من هذه الأقفاص المصنوعة من شباك معدنية رفيعة يحوي نوعاً من الحشرات.

- ولكن بعضها قد يعيش مع بعضها الآخر؟..

في هذا خطورة على تكاثر أنواعها، لذلك عزلها العلماء بعضها عن بعض، يمكنك رؤية أنواع كثيرة من الحشرات حتى العناكب السامة والعقارب وصراصير الحقول..

دخلا قسم حيوانات التجارب، كان العاملون فيه ينتشرون حول الأجهزة المتلفزة يراقبون سلوك الحيوان، وبعضهم يفحص عينات من دمه تحت المجهر.. وقد توزعت مئات الأقفاص في

القسم، كان هناك الفئران والقرود والكلاب والقطط والزواحف والأسماك.

قالت له ريم وهي تشير إلى مجموعة من النباتات في الركن الأقصى من القسم.

- هي نباتات وأعشاب لازمة لحياة هذه الحيوانات، سواء أكانت برية أم بحرية.. ولكن سامياً لم يكن مهتماً بالأمر، كان يقف أمام قفص يحوي قرداً أبيض كالثلج.

- أول مرة، أرى في حياتي قرداً أبيض.

- لهذا القرد قصة مثيرة، انظر إلى هدوئه، ولمعان عينيه، إنه قرد من نوع الشمبانزي أرسل في سفينة فضائية، هبطت المريخ، وحين عادت إلى الأرض، أخضعناه لبحوث تفصيلية لدراسة مدى تأثيرات جو المريخ عليه..

- وماذا كانت نتائج تلك البحوث؟

- لفت نظر الباحثين مدى التغيرات التي طرأت عليه، رد الفعل الانعكاسي، التفكير المنظم حيث أن ذكاءه ازداد بنسبة خمسة أضعاف عما كان عليه، الشمبانزي كما تعلم من أرقى قرود البونجيدا معدومات الذيل وأكثرها تقبلاً للتعلم، وبعد عودته كان يقوم بحركات غريبة ويقلد أصوات ذبذبات

إلكترونية، ويخطط على اللوح الأسود الموجود إلى جواره خطوطاً عجيبة، تدل على تصورات مذهلة حملتها ذاكرته، لم يتمكن العلماء من معرفتها بعد، وقد وضعوا احتمالاً أن هذا القرد الذي انطلق من الأرض أسود اللون، وعاد إليها أبيض اللون تماماً، قد رأى أمامه على المريخ كائنات عاقلة لم تقترب منه على المركبة، وإنما راقبته من بعيد وأجرت اختباراتها المجهولة على المركبة من الخارج، وهذا ما جعل العلماء يفترضون وجود حياة عاقلة على الكوكب الأحمر الذي قيل عنه في الماضي: إنه مر بمراحل تطور الأرض ذاتها.

- وهل أرسلوا سفناً فضائية إلى المريخ بعد السفينة التي حملت هذا القرد؟

- ستنطلق سفينة بعد أسابيع وهي تحمل رواداً من البشر للهبوط فوقه، حيث تلحق بسفينة تحمل رواداً أيضاً تدور حوله..

- أتعني أن العلماء في المدينة تمكنوا من تحقيق ما عجزت عنه الدول المتطورة حالياً..؟

- أرسلنا سفناً إلى القمر، ولدينا محطة ضخمة على سطحه، هناك محطة مدارية تدور حول الأرض تابعة لقاعدتنا، يتناوب الرواد الصعود إليها.

- وكيف لم تكتشفكم الدول المتطورة حتى الآن.

- إننا نبث أقوى موجات التشويش على الرادارات، ونحمي المنطقة بحواجز من الموجات ذات الترددات الخاصة التي من المستحيل كشفها، ألم تنبهك قاعدتك ألا تقترب من هذه المنطقة؟

- بلى.

- لأنهم يعرفون أنها منطقة غامضة فيها تيارات وموجات مجهولة، وقد شبهها بعضهم بمثلث برمودا.

- حلم يصعب علي تصديقه.

* * *

- ٧ -

وصلا قسم الهندسة الفضائية في (مدينة الحكمة)، ميدان ضخم واسع، وفي وسطه ربض صاروخ ضخم، ومئات من العمال والمهندسين، غارقون في أعمالهم يتحركون كخلية النحل، وعلى أحد الجدران كانت خريطة ضخمة للوطن العربي، وعلى جدار آخر خريطة للقمر، ثم خريطة لكوكب آخر، انتبه من ذهوله على ريم تشده من يده.

- أشارت الحجرة إشارة ضخمة بدت من زاوية الميدان، دخلاها وقد فتح الباب آلياً، أزَّ الجهاز الذي تضعه على صدرها، ضغطت على أحد أزراره، سمع صوتاً ناعماً ينبعث من الجهاز.

- حين تنتهي زيارتك لهذا القسم توجهي مع الزائر إلى المجلس الاستشاري.

- حاضر..

نظرت إليه بعمق، بدت حزينة للحظات، قبل أن تسترد طبيعتها، أخذت تعرفه بما حوله..

- هنا يتدرب رواد الفضاء قبل أن يسمح لهم بالطيران، يجب على رائد الفضاء أن يتحمل المشاق التي يمكن مصادفتها في الفضاء، سيطير بطائرات ذات سرعات عظيمة، تحلق في الجو على ارتفاعات عالية، ويخضع لدرجات عالية من الحرارة، ودرجات منخفضة، ليتحمل البرد الشديد.

ويقيسون مدى تجاوبه الذهني، رد فعله الانعكاسي، متانة أعصابه، وتمارين أخرى كثيرة..

انظر إلى ذلك الشاب، إنهم يثبتونه على دولاب سيدور بسرعة فائقة.

- أهو من طاقم السفينة التي ستنطلق نحو المريخ.

-يمكن.

تجولا دقائق في المكان، كان سامي يحس إحساساً غامضاً بالخوف، ما يراه هنا أكبر من أن يتصوره عقل، حضارة حقيقية، تنمو في اتجاه مسالم وديع، الناس فيها سواسية، متطورون في علاقاتهم ونظرتهم للمستقبل.. لا أثرة ولا أحقاد.

وكأنما قرأت (ريم) أفكاره، فقالت له: كل شيء يبدو هيناً مادام الإنسان يستخدم عقله في الاتجاه الصحيح.

أحس بانجذاب كبير إلى هذه السمراء الطويلة ذات الابتسامة الساحرة، كانت أنموذجاً فريداً للرصانة والهدوء والبساطة والمعرفة الواسعة..

- ومتى نزور أسرتك..

- يطلبوننا في المجلس الاستشاري الآن.

أحس بالنعاس يطبق عليه وهو يجلس في الحجرة المتحركة المنطلقة نحو المجلس الاستشاري، كان خَدَراً جميلاً أسلمه لنوم هادئ، عميق..

* * *

كانوا متجمعين حوله يتشاورون، وكانت ريم بينهم صامتة حزينة، لقد خرج العقل الإلكتروني بنتائج جديدة حول سامي، اقتضت أن يعيدوا بعض التجارب عليه، كان يعني ذلك بالنسبة إليها أن احتمال إسدال النسيان على ذاكرته، هو احتمال متوقع تماماً.

بدأت الصور تتدفق من ذاكرة سامي وقد التفت الأسلاك حول رأسه وريم تراقبها بتوتر شديد..

سامي في طائرة حربية، يقود سرباً من الطائرات.. السرب يحلق بشكل بديع فوق الجبال.. بدأت الأصوات ترتفع من الجهاز، الطيارون يتحادثون فيما بينهم باللاسلكي، فجأة ظهر تشكيل لطائرات معادية، اصطدم مع السرب في معركة جوية طاحنة.. التفت بضعة طائرات حول طائرة من السرب، سامي انتهت ذخيرتي..

كان الصوت يصدر عن طائرة أحاطت بها الطائرات المعادية.. بدا سامي متردداً لم يعط الأوامر لبقية طائرات السرب لنجدة الطائرة المحاصرة.. ثوان وبدت الطائرة كتلة من اللهب، حيث انطلقت عدة صواريخ في اتجاهها، وفي اتجاه طائرات

السرب نفسه.. لم يجابه سامي التشكيل المعادي، بل انطلق بطائرته بعيداً في الجو..

- كان العرق يتصبب من جبين سامي، وقد أحاطت الأشرطة برأسه، وفجأة بدأ يرتجف، كأنه يتعرض لنوبة برداء لعينة.. واستمر دفق الصور من الجهاز.. والعيون مشدودة نحوه تراقبها، وهي تروى قصصاً عن حياة سامي الأخرى..

* * *

استمرت التجارب الجديدة على سامي نحو أربع ساعات، كانت ريم خلالها تراقب ما يجري بحزن، وقد أيقنت أن مصيره في مدينة الحكمة معلق بنتيجة هذه التجارب..

* * *

- أعتقد أن شيئاً ما في داخله يعذبه دائماً.

- يبدو كشعور بالذنب شَكَّل في داخله عقدة يمكن أن تؤثر عليه كثيراً في المستقبل..

- لاشك أنه شاب شجاع ذكي وأمين، ولكن تسليمه مهمة كبيرة، يبدو صعباً تماماً..

- أثناء تجواله في قسم التجارب الفضائية تولد عنده شعور بالخوف، ثم ضغط بأصابعه على ميدالية يحتفظ فيها بصورة صديقه الذي مات.. تلك الحادثة الصغيرة شتتت فكره قليلاً، فلمع ضوء أحمر في جهاز المراقبة الذي يتتبعه..

- وماذا سنفعل يا سيدي؟

- بكل أسف لا نستطيع الاحتفاظ به هنا.

كانت ريم تسمع حزينة متماسكة، وقد أيقنت أخيراً أنها لن تعرف سامي بوالديها كما وعدته، ولن تزداد صلتها به.. بل سيختفي من حياتها إلى الأبد..

ذلك الشاب اللطيف سيئ الحظ الذي لم يحز على ثقة المجلس الاستشاري لمدينة الحكمة..

ضغط والدها على يدها يشجعها وهو يبتسم ملاطفاً، في حين انحدرت من عينها دمعة مسحتها بصمت..

* * *

- ٩ -

كان ممدداً على الرمال، والشمس تجنح نحو الغروب في صحراء واسعة، لا أثر فيها لكائن حي، نهض مذعوراً، كان في كامل قوته، ما الذي جرى له؟ كان يحلم، أخذ يحاول ترجيع صورة الفتاة التي رافقته في الحلم.. كانا كأنهما يسيران في شوارع عجت بمئات الأجهزة الإلكترونية.. ولكن رأسه أخذ يؤلمه.. وهو يحاول قسر ذهنه على تذكر حلمه الذي أخذ يتضاءل ويضمحل من ذاكرته..

انتبه لقافلة من الجمال تبدو متجهة إليه. كانت قافلة محملة بالمؤن والماء، تقصد إحدى القرى الموغلة في الصحراء.. قال له شيخ القافلة:

- لاريب أنك ذلك الطيار الذي يبحثون عنه، لقد أبلغنا الهجانة باختفائك وقد رصدوا مبلغاً كبيراً لمن يعثر على جثتك.

نظر بهدوء إلى الشيخ الذي صرخ بأحد الفتيان:

- احضر الحليب للضيف.

- كان الشيخ يتأمله، وقد أناخت القافلة جمالها:

- كيف تمكنت من العيش ليومين في هذه الصحراء؟ أصادفتك إحدى القوافل؟ أم استضافك رجال القبائل؟

انتبه من شروده على هذا السؤال الذي أذهله، إذ منذ يومين وهم يبحثون عنه، أين كان في تلك الفترة؟ هل كان غائباً عن الوعي، يحلم بمدينة كبيرة عجيبة، وفتاة جميلة تقوده في شوارعها؟ لم يدر بماذا يجيب الشيخ، كان محتاراً استعصى على ذهنه فهم ما يجري، ولكنه تحمس لاشعورياً، نعم..

- توارثوا الكرم عن أجدادهم يا بني، حاول أن تتناول هذا الحليب الآن، وفي الصباح سنوصلك إلى من يبحثون عنك..

تمدد سامي سانداً رأسه المصدوع، على وسادة قدموها له، كان يحاول جهده تذكر حلمه الأسطوري، وتذكر وجه الفتاة بابتسامتها الساحرة، وهي تدور معه في شوارع غريبة مسقوفة، ولكن صداعه اشتد وطغت آلام رأسه على الصور فأخفتها، وحولتها إلى ضباب كثيف.. فازداد حزنه، أكان يحلم حقاً أم إن شيئاً ما حدث له؟

أحس بشيء صلب يضغط على فخذه، مد يده إلى جيب سترته يستخرج الميدالية المدورة التي كان يحتفظ بها دوماً، والتي تذكره بحادثة مازالت تعذبه.. تحسسها بأصابعه ثم ضغط عليها يفتحها،

وأخذ يتأمل صورة صديقه الذي مات قبل أشهر، أحس بالألم يعصر فؤاده، يا إله السماوات، وما الذي يلح عليه ليعيد تذكر ما حدث له.. بدأ يتعذب، وهو يسترجع ملامح صديقه، غلطة قاتلة أودت بحياته.

كان سامي يقود سرباً من الطائرات المقاتلة، عندما اشتبكوا مع تشكيل معاد، طلب منه صديقه الحميم، وكان من ضمن مقاتلي السرب، أن يساعده وقد نفدت منه ذخيرته، وأحاطت به طائرات السرب المعادي، ولكن سامياً جبن في اللحظة المناسبة، وحين أعطي الأمر كانت الصواريخ قد دمرت طائرة صديقه، وأصابت طائرتين من السرب أيضاً، عندها اندفع سامي بطائرته هارباً دون أن يجابه التشكيل المعادي، لم يدر كيف حصل ذلك، كان قراراً سريعاً اتخذه دون أن يشعر، ولكن أحس فيما بعد أنه كان أقسى من أن يحتمله، امتنع عنه النوم لأيام، وصوت صديقه يتردد في جهاز الاستقبال، سامي انتهت ذخيرتي، كان معروفاً بجرأته لديهم، وكانت فرصة لهم ليدمروه وجهاً لوجه.

ظل سامي طويلاً يعاني من آثار تلك الحادثة، ولم يتمكن حتى بعد اقتحامه للمخاطر من جديد، وإسقاطه الطائرات المعادية من نسيان خطيئته، لذلك ظل يحتفظ بتلك الصورة في جيبه.

عاش لحظات من الندم، كانت أقسى عليه من الموت بعد رحيل صديقه، اشتد عليه الألم وهو يتقلب على فراشه معذباً مفؤوداً، يحاول أن يتذكر ما حدث له طوال اليومين الماضيين دون نتيجة، كانت صور حلمه تختفي بالتدريج، كلما حاول استعادتها، أرَّقته الأسئلة والاستفسارات الغامضة التي تدفقت في ذهنه، ولم يعرف النوم طريقه إلى عينيه، نهض أكثر من مرة في الليل وتمشى عصبياً، حول القافلة الهاجعة، مما أثار ريبة الحراس، ولكن صراخ الشيخ أوقفهم.

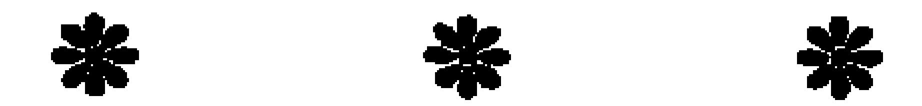
- يبدو أنه مر بظروف صعبة، اتركوه على حريته..

ربما كانت ظروفاً صعبة، بل وخرافية تلك التي مر بها، ربما كان يحلم بإبداعية (رومانسية) مدهشة، وظل الحلم يتوهج في أعماقه، بعيداً عن هذا العالم المأفون الوالغ بالأحقاد والصراع على المكاسب الخاصة، ولكن تفاصيل حلمه كان عاجزاً عن تذكرها.

وفي الصباح كانت كل تلك الأفكار قد اختفت من ذهنه دون أثر. وحين التقى رجال الهجانة في الصباح، كان عاجزاً عن تفسير سر غيابه، ولكن اقتنع أخيراً أنه كان في ضيافة إحدى القبائل التي تستوطن الصحراء، ولتعبه نسي عنايتهم به، وربما نام يومين متتالين مرا كالحلم.

كوكب التحول

تبدأ لحظات التأمل والشرود تنقلك إلى عالم غريب كله تعب وأسى، وتظل ترجع ذكرياتك وأنت تحدق فيما حولك وقلبك ينتفض من الألم.. سنون بعيدة مضت عليك وأنت في ذلك الكوكب يستعبدك أهله، يذلونك، يوجهون إليك مختلف أنواع التحقير والشتائم، وأحياناً تتلقى من سيدك الصفعات بصبر دون أن تتمكن من المقاومة، جمهرة من العبيد كائنات لا تختلف عنك في المواصفات الفيزيولوجية، تتجمع حولك تشلّك عن الحركة، والسيد ينهال عليك بصفعاته المؤلمة، وأحياناً بسوطه يلسع ظهرك العاري حتى يدميه..



كنت في سفينتك الفضائية تتجه نحو كوكب يدور حول نجمة (دينا) حين خضعت سفينتك لقوة جذب تحريضية، شلت فعاليتها، وعطلت بعض أجهزتها الحساسة، وإذا بك محاصر

بمجموعة من سفن فضائية غريبة شكلت حولك مجالاً مغناطيسياً قوياً.. دون أن تتمكن من إرسال نداءات الاستغاثة، وبعد فترة بدأت سفينتك المقيدة بقوى مجهولة تهبط فوق سطح كوكب مزدان بالخضرة في بقعة مربعة الشكل تحيط بها القباب، وتمتد (الأنتينات) إلى ارتفاعات عالية.

كنت تحس بشيء يعصر قلبك، وأنت تهبط سلم محطتك الفضائية إلى الخارج، دون أن تقوى على ارتداء كمامة لحمايتك من الجو الخانق الذي توقعت أن يكون مسيطراً على الكواكب.. كنت مقوداً تتحرك لاشعورياً كالمنوم مغناطيسياً، تهبط الدرجات القليلة من سلم المحطة دون أن تحس بحاجتك إلى الأوكسجين، يبدو أن جو الكوكب شبيه بجو كوكبك الأرضي، عاودك الحنين إلى الأرض التي فارقتها منذ سنين، إلى مرتع الصبا والطفولة، إلى وهاد القمر الأرضي، وإلى فوموس وديموس قمريْ المريخ، حيث تمكنت من اختراع ساعة تضبط الوقت تتحرك مؤشراتها الضخمة على مساحة واسعة مع حركة قَمَريْ المريخ: القريب السريع والبعيد البطيء..

الأول الذي يبدو كأنه يشرق من الغرب لأنه أسرع من دوران المريخ حول نفسه، والثاني البطيء الحركة الشبيه بالقمر الأرضي.. كان اختراعك قد لقي استحساناً من مدرسيك،

وأنت بعد في أعوامك الدراسية الأولى، وتنبؤوا لك بمستقبل علمي، حتى إن مدرس الرياضيات العليا في معهد العلوم العالية، طالب والدك بإلحاقك بجامعة الفلك العليا في وطنك، حيث بدأت تتفوق على أقرانك، حتى أرسلت في بعثة دراسية إلى خارج وطنك، إلى بلاد تسيطر على الأدمغة ولا تسمح لها بالعودة إلى وطنها الأصلي بل تستثمرها.. قاسيت الأمرّين في تلك البلاد، قبل أن تتمكن من الهرب والعودة إلى وطنك، حيث أشرفت على جامعة الفضاء العليا التي كانت قاصرة الإمكانيات، وطورتها لدرجة أصبحت محط احترام الجامعات الأخرى في العالم، كنت قد قاربت الخمسين من عمرك حين بدأت تسافر في رحلات خارج المجموعة الشمسية، وكنت في كل رحلة تعود منها، تجد الكثير من التغييرات التي طرأت على الأرض، أقاربك الذين يصغرونك، أصبحوا يتقدمون عليك في السن..

كان سفرك المتواصل في الفضاء بسرعات خيالية، قد جعل سنك لا يتغير إلا تغيراً طفيفاً، والزمن يتقدم، أصبحت جامعة الفضاء العليا في وطنك، عنصراً فاعلاً في مجموعة جامعات الدول المتطورة، وكنت تكلف بمهمات كانت ترهقك، ولكنها كانت تسعدك.. وحين تنتصر على العقبات التي تعترضك بعد

تحمل مشاق طويلة، كنت تتحول إلى كائن سعيد كالطفل يتحرك بحيوية يفرش الأرض المليئة بالشوك ورداً وينام على الحلم..

* * *

تصحو من تأملاتك على صوت السجان الجاف:

- آن لك أن تبدأ العمل..

تنهض ببطء، ترتدي لباسك دون أن تمسح وجهك بالماء القذر الذي يقدمونه لك، وتتجه إلى الباب، حيث تتلقى رفسة شديدة من سجانك، تدفعك إلى الخارج.. يُغْشي النور عينيك، تحس بآلام في رأسك قبل أن تعود إلى وعيك لتلتحق بالرتل الطويل الذي يسير في طريق ضيق وعر، تحدق في هذه العلامات الحية المتحركة في الرتل بلا إحساس، جمهرة غفيرة من الأحياء يشبهونك في مواصفاتهم، خامدو الحركة واهنو القوى، زائغو البصر، ولسعات السياط تنهال عليهم، فتزيدهم خموداً وبؤساً.. قوى غريبة تسيطر على هذا الكوكب، لم تأت من كوكب آخر، وإنما جاءت من القبائل التي تستوطنه.

طورت إمكاناتها التقنية والعلمية وسيطرت على مقدراته، وزرعت الرعب والتخلف فيه. شجعت نمو المعابد، وتكاثر

الأديان البدائية وتشاحنها، وظل الفقر يتجذر، حتى أصبح آفة ستشل الآلاف سنوياً..

في أحد الأيام اقتادك سجانك إلى غرفة الزيارة ليستقبلك كاهن تفرس فيك وفي بدنك القوي، ثم أشار برأسه إشارة خاصة، لم ترعبك نظراته، كنت تحس أنه معجب ببدنك القوي، ويرغب بتكليفك بمهمة.. وفعلاً سمعت من مدير سجنك عبارة كانت شديدة الوقع عليك، أنك حزت على رضا الآلهة وستذهب إلى المعهد القريب لتخدم في محرابه..

خرجت تلك الليلة يحيط بك أربعة كهان، وليس معك سوى ثوبك القديم الذي احتفظت به كذكرى أيام بعيدة قضيتها في كوكب الأرض، وأنت تودع رفاق سجنك، وقلبك يقطر أسى من نظراتهم الصامتة، أحسست أن مهمة ضخمة ملقاة على عاتقك، ويجب عليك أن تحاول إتمامها بنجاح.. وقد بدأت تتنسم أنسام الحرية ولو للحظات محدودة..

ألقيت إليك مهمة تنظيف المعهد، والعناية بخدمة الكاهن الأكبر، أحبك الفقراء الذين يرتادون المكان، وبدأت بالتدريج تحاول توعيتهم إلى واقعهم بصمت وسرية، دون أن يتنبه لك الكهان الذين كنت تطيعهم وتقوم بكل ما يريدونه من عمل،

حتى كان ذلك اليوم حين طلبك الكاهن الأكبر للحضور إلى مخدعه في ساعة متأخرة من الليل لتدلك له جسمه المتعب، نجحت في التجربة، وارتفعت منزلتك إذ صرت الرجل المقرب من الكاهن الأكبر في المعبد الذي يؤمه كبار رجال الدولة والتجار والأثرياء، لم تدر كيف دخلت في اللعبة، وأصبحت تصدر الأوامر للكهان وخدام المعبد، الذين بدؤوا يهابونك، وأخذ الكاهن الأكبر يستقبل ضيوفاً مهمين في الدولة، ويستدعيك لتدلك أجسامهم المتخمة..

استمر نجمك يبزغ في المعهد، وكنت خلال هذه المدة تقوم بعمل آخر متعب، هو تنظيم مجموعات الفقراء الذين يؤمون المعبد، والمعابد المجاورة، ونجحت في إقناعهم أخيراً بأن ما يخافونه من قوى الأصنام التي يتعبدونها ليس إلا هراء، أكثر من مرة حطمت صنماً لإله في محاولة لإقناعهم أنه من الحجارة التي لا تضر ولا تنفع.

وبدؤوا ينضمون إليك في صمت، وأنت تنظم مجموعاتهم، وتعرفهم بمفاسد الكهنة ورجالات الدولة والمستغلين الجشعين.. وتريهم أحياناً بعضاً من مخازي أولئك المتسلطين.. وصل تنظيمهم إلى الذروة وأحسست فعلاً أن بإمكانك القيام بعمل كنت تحلم أن تقوم به..

فوجئ بك كبير الكهنة تسحبه من غرفته ذات صباح، وقد انتشرت مجموعاتك عبر ممرات المعهد ودهاليزه.. بدأت الثورة، كانت كاللهب، انتشرت في كل المنطقة، وكان الفقراء وقودها، حطموا ما حولهم، حرقوا القصور الفارهة، وألقوا بأصحابها إلى الخارج.. كنت في مقدمة المجموعات تتعرض للضرب أحياناً، وللسهام الغادرة أحياناً أخرى، ولكنك كنت تفكر في هدفك دون أن تبالي بالجروح والحروق، ودون أن توقفك هجمات الحراس والأزلام..

فتحت السجون، انطلق آلاف المظلومين إلى العراء، يعبون نفس الحرية، ويشاركون في هذه الثورة على الظلم..

بدا لك كل ذلك كالحلم، استعرضته وأنت تغادر كوكب السفلة، هذا الذي أصبح كوكب التحول، وينطلق صوتك عبر محطتك الفضائية إلى أصدقائك في كوكب التحول، يبثهم تحيات الوداع والأمنية.. وأنت تتجه إلى الأرض. كان ذهنك المنفعل بالأحداث التي شهدتها، قد بدأ يتعب، فسلمت مقاليد السفينة إلى العقل الإلكتروني يسيّرها، وتسلل النوم العميق إليك، وسفينتك تنطلق بسرعة خارقة تجتاز النجوم والسدم في رحلة العودة.

الحلبة

يا لهذا العالم العجيب المتغير، عدت إليه لتجد الظلم يحيق بسكانه من كل جانب، كان الجلادون ينتشرون في كل مكان من كوكب الأرض، ينصبون مقاصلهم ومشانقهم في الميادين والساحات العامة، وحين حطت مركبتك الفضائية في سهل فسيح قرب إحدى المدن الضخمة التي تشرئب مبانيها لتعانق السماء، أحاطت بك مدرعات حربية من كل جانب وبدا صوت يهدر من مكبرات الصوت، يطلب منك الاستسلام.

فتحت المركبة بهدوء وأنت غير مصدق، كنت تحلم، وأنت في طيرانك البعيد في الطرف الآخر من المجرة، بكوكب سمح، يحب سكانه بعضهم بعضاً، الناس فيه سواسية لا طغاة ولا قتلة يطاردون الأبرياء لاستغلالهم وهدر إنسانيتهم...

أهكذا أصبح كوكب الأرض بعد غياب سنوات طوال عنه في رحلة الكشف عن عوالم جديدة؟

كانت زوجتك وولداك في غرفة السبات الطويل في السفينة، لم تشأ إيقاظهما قبل أن تستكشف الأرض بعد ذلك الغياب الطويل..

* * *

نزلت بهدوء من سلم المركبة، تحدق حولك غير مصدق مئات من فوهات البنادق تسدد نحوك وجنود تقدح عيونهم بشرر الوحشية والغضب، ما إن وضعت قدمك على الأرض أول مرة بعد سنوات طويلة، وكنت تحلم بتلك اللحظة دون أن تبالي بهذا الحشد المسلح حولك، وركعت لتقبل تراب هذا الكوكب الذي شهد صباك وسعادتك، حتى أطارتك رفسة من (بسطار) جندي مدرب فألقتك بعيداً، ومئات النجوم تتطاير من رأسك، حاولت النهوض والألم يعصف بك، فتلقيت ضربة من أداة ثقيلة أفقدتك الوعي.

صحوت على الماء البارد ينسكب فوقك، وأيدٍ قاسية ترفعك وتجلسك على مقعد مليء بالإبر التي انغرزت في لحمك حارة لاذعة، فصرخت (ماذا تريدون مني؟ لم تعذبونني؟..) وصلت إلى سمعك قهقهة عالية وصوت يصرخ بغلظة شديدة..

- خرجت على القوانين أيها الوغد.

- كيف؟ ولم أطأ بقدمي الأرض إلا منذ وقت قليل؟

- لم تخاطب أجهزة الاستقبال بعبارات الولاء للملك.. ولم ترسم الإشارة الملكية من خلال بثك التلفازي.. ولم تفهم أيها الجاسوس الدنيء أن سفينتك يجب أن تحط في مهابط على شكل التاج الملكي، ولم تنحن أمام الراية الملكية حين هبطت سلم سفينتك.

- لم أكن أعرف هذه الطقوس، أنا قادم من مكان بعيد..

- لن تنجو من عقابنا الصارم..

وإذا بصوت أجش يصل إليهم: دعوه سينفذ ما يطلب منه.

لم تكن في حالة تمكنك من الفهم، ولكنك أحسست بأيد ناعمة ترفعك وتطلي جسمك بالمرهم، لتشعر براحة لذيذة ولتميز قبل أن تغفو فتيات جميلات شبه عاريات يحطنك ويحملنك فوق محفة.

* * *

صحوت لتجد نفسك في قاعة واسعة مليئة بالمقاعد الوثيرة، وتنتشر فيها الفتيات الجميلات بملابس خفيفة تظهر مفاتنهن..

كنت ممدداً فوق أحد المقاعد الوثيرة حين اقتربت منك إحداهن وهي تبتسم، وهمست إليك: لا ترفض طلباتهم سيعذبونك كثيراً..

اعتدلت في جلستك ترمق ما حولك، زخارف ونقوش وتماثيل منحوتة بدقة تفوق الوصف وصل إليك صوت امرأة التفت نحوها، كانت امرأة سمينة تأكل من طبق من الفاكهة وضع أمامها قالت بفمها الممتلئ:

- أدين الولاء للملك.

ثم أشارت إلى إحدى الفتيات أن تبدأ بتلاوة يمين الولاء، ووجهت كلامها إليك.

- أعد وراءها الجمل التي تقولها..

- «مولانا، ولي نعمتنا، حامينا من الخطر والأعداء.. نحن عبيدك ومواليك، الخاضعون لمشيئتك، لك الحق أن تحيينا، أو أن تعاقبنا، إن قصّرنا في واجباتنا، بأن تلقينا تحت أحذية جنودك المباركة.. يا مليكنا المحبوب، نحن قطيعك المطيع الأبله، لن نتخلى عن بلاهتنا لأنها تجلب رضاك، ستظل أدمغتنا جوفاً فارغة، وألسنتنا لا تلهج إلا بالدعاء لك، وآذاننا لا تسمع سوى مديحك، وأبصارنا معلقة بتاجك الذهبي الذي يتوهج في

ربوع مملكة الوفاء والخضوع.. نقسم بشاريك الغالي، وصوتك الحنون على شعبك، أن نظل أفراداً مطيعين من قطيعك، وبسطارك الضخم الذي يدمي رؤوسنا بتبريكاته شاهد علينا، وفوهات بنادق مخبريك وجلاديك حفظ لقسمنا من الحنث..».

فاجأتك هذه العبارات وأيدي الفتيات تعبث بك، تستحثك على النطق.

همست إحداهن، فتاة شقراء، خضراء العينين تغلف وجهها مسحة من الحزن واليأس: ردد أيها المعتوه لا طاقة لك باحتمال تعذيبهم..

- وإن لم أردد.

- قد يلقونك في مصيدة الموت، كغيرك.

- وأين ذلك الملك الذي تبجلونه؟

- في قصره في جبل الملذات.

- أين؟

- لا تكثر من الأسئلة، ستنتبه القهرمانة وتعاقبني..

كانت تعني تلك المرأة البدينة التي بدأت فعلاً ترمقك بنظرات غاضبة:

- مالك تتبلد؟ ردد القسم..

- أنا رائد فضاء مسكين، أتوق أن أردد القسم في حضرة مولانا الملك..

أوصلت بك الجرأة إلى هذا الحد؟

وما في ذلك؟ عبد يرغب في رؤية مولاه..

صرخت: أحضِرْنَهُ إلى هنا..

رفعنك بقوة، وطرحنك أرضاً أمامها:

- أيها الأحمق.. أمامك اختبارات كثيرة، إن نجحت فيها، وهذا مستحيل، قد ترى مولانا الملك..

- أنا قادم من عباب الفضاء، وعندي ذخيرة من الحكايات المسلية كافية لإسعاده، قهقهت بضحكة خبيثة ثم صفقت مرتين..

- خذوه إلى الحلبة.

نظرت نحو الشقراء، فرأيتها تحدق نحوك برعب وحزن، وظلال دموع تبدو في عينيها الخضراوين.. فابتسمت لها بشجاعة وصوت القهرمانة يدوي.

- سترى أين يؤدي بك حمقك؟

اقتادك الحراس في ممر معتم، انفتح أحد جدرانه لتهبط بصحبتهم درجات منحدرة، انتهت بكم إلى ساحة كبيرة مستديرة، تحيط بها مدرجات عالية، وجدران الساحة مكونة من قضبان ثخينة متشابكة، انحشر داخلها أناس نطقت عيونهم بعبارات التحدي والبؤس، اختفى الحراس مع رفاقهم، فاقتربت من القضبان الحديدية الثخينة.. كان من فيها يرمقونك بأعين التشجيع.. فهمت منهم أن هذه الحلبة هي لمصارعة الوحوش القافزة، وأنه بعد قليل ستمتلئ المدرجات بالمتفرجين الذين سيتفرجون على صراع الوحوش، مع البشر، وربما انضم الحراس المدججون بالأسلحة إلى الوحوش للمساهمة في إثارة وتهييج المتفرجين..

فوق كوكب الأرض يعيش نوعان من الناس، نوع خاضع لسلطة الملك من حراس وخدم وتجار، ونوع رافض مسجون معذب، مجوع، يختار من النوع الثاني أناس يوضعون وجهاً لوجه أمام وحوش جائعة هائجة فتفتك بالعشرات منهم.

كنت يائساً تماماً، حين انتبهت إلى أن نطاقك الحديدي المزود بجهاز صغير لإطلاق حزمة اللازر لازال يحيط بخصرك..

بدأ المتفرجون يتدفقون يملؤون المدرجات بألبسة فضفاضة

وعيون كسيرة بلهٍ.. أهكذا أصبحت الأرض، بعد أجيال متعاقبة وصل فيها المستغلون إلى قبض زمام الأمور.. وتفننوا في الظلم والجبروت..

نبهك الناس داخل القضبان إلى سحلية قافزة مثل تلك السحالي الضخمة التي انتشرت في الأرض في الأحقاب الجيولوجية القديمة.. جريت من أمامها ولكنها وصلت إليك، قبضت عليك بمخالبها الحديدية ورفعتك لتضعك في فمها الواسع الكريه الذي بدا كمغارة ضخمة، وبدت أسنانها وأنيابها كسيوف خرافية تلمع، ضغطت بيدك الحرة على النطاق الحديدي فانبعث شعاع من اللازر، فأصاب إحدى عينيها الجاحظتين فتركتك تسقط على أرض الحلبة من على ارتفاع خمسة أمتار سقطة أفقدتك الوعي لثوان، وسط هتاف المتفرجين الذين ملؤوا المدرجات يستحثون الحيوان على القبض عليك من جديد.. نهضت من سقطتك لتفاجأ بمصارعين يحملون في أيديهم أسلحة بدائية، بلطات وسيوفاً ورماحاً، وسمعت خلفك صيحات التشجيع من المسجونين.. فاندفعت نحوهم تضغط على نطاقك لينبعث شعاع اللازر من جديد، ليصيب بعضهم وليتراجعوا بذعر، وقد تبخرت بعض أسلحتهم من سيوف ورماح وبلطات حادة، اتجهت صوب القضبان الحديدية الثخينة، وبدأت بجهازك

اللازري تصهر جزءاً منها.. قبل أن يصل إليك زعيق ديناصور هائل اندفع نحوك من أحد الأبواب الضخمة..

لم تتمكن من تهيئة نفسك لمجابهته، حاولت مراوغته كان بطيئاً، اعتليت ذيله الطويل متسلقاً جلده المليء بالحراشف فانتفض وحاول إلقاءك بعيداً، ولكنك استخدمت سلاحك اللازري من جديد فجرحته جرحاً عميقاً، جعله ينتفض ليقذفك بعيداً ومئات النجوم تتساقط من رأسك..

وفجأة اندفع هدير ضخم، غطى على كل شيء، وإذ بسُحب بيض كثيفة تنتشر بسرعة البرق في كل مكان، كنت متعباً، محطماً حين حانت منك التفاتة إلى الزنزانات فوجدت المسجونين ينطلقون من الثغرة التي فتحتها لهم بين القضبان، وبأعداد هائلة وهم يصرخون صرخات الغضب والثورة..

ولم تحس بشيء بعد ذلك..

* * *

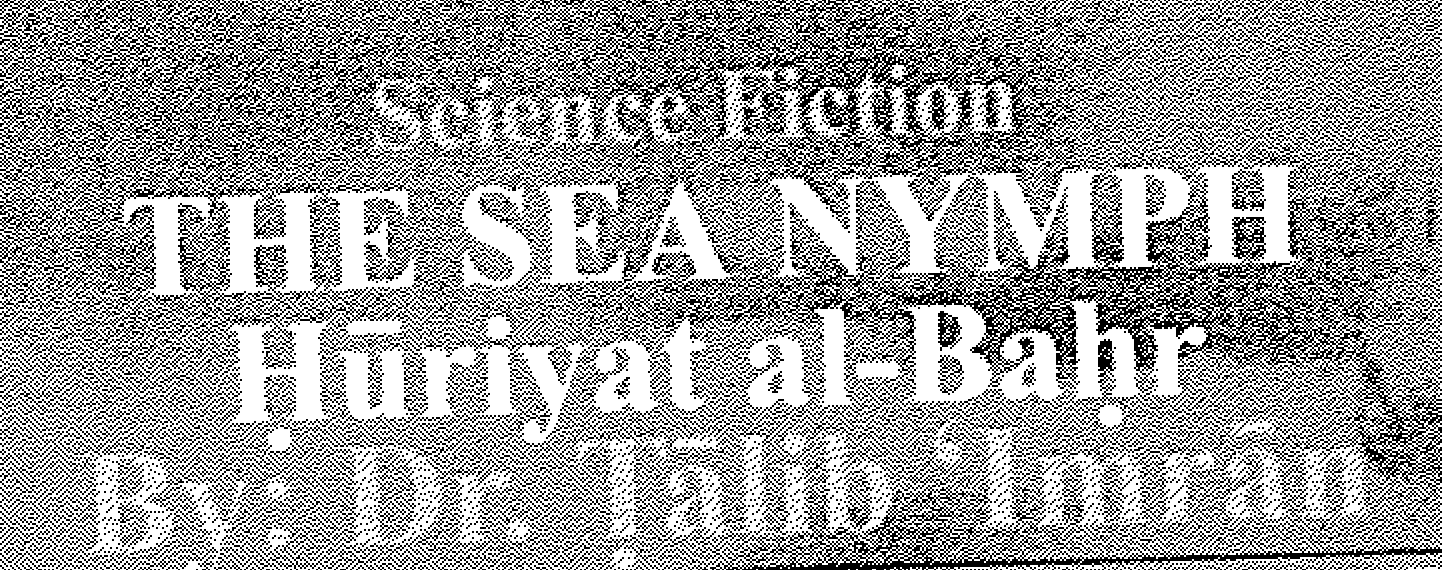
حين استيقظت رأيت نفسك في السفينة الفضائية وقربك زوجتك وابنك والسفينة منطلقة في الفضاء مبتعدة عن الأرض..

قالت لك زوجتك فيما بعد: استيقظت من سباتي الطويل على ضربات قوية تنزل على السفينة، كانت هناك مئات المصفحات تجرها إلى جهة ما، تمكنت بجهاز التتبع من رؤيتك على أرض الحلبة، تخلصنا أولاً من سلاسل الجر، وبدأنا بعد أن استيقظ الصبي في محاولة الدفاع عن السفينة من مصادر النيران التي كانت تأتيها، وهبطت وحدي من جديد في عربة صغيرة طائرة إلى الأرض، ومن جهاز التتبع حلقت فوق أرض الحلبة مكونة سحباً من الدخان الأبيض شُغِلْت عن الناس، حيث رفعتك إلى العربة بمعونة الإنسان الآلي..

بدأت تحكي لك عما رأت قبل إنقاذك، الناس يندفعون من السجون يتسلحون بالعصي والحجارة، وينتشرون في المدرجات يقاتلون الحراس.. تكبر مجموعاتهم..

وكنت تصغي إليها شارداً دامع العينين.. وقد اختلجت في ذهنك المشاعر..

* * *



سلسلة قصص وروايات شيقة، بقلم أحد أهم رواد الخيال العلمي العرب، الدكتور طالب عمران، تأخذ القارئ إلى عوالم، يمتزج فيها الواقع بالخيال، والعلم بالقوى الخفيّة للإنسان، والمعقول بغير المألوف؛ وذلك لاستخلاص فوائد علميّة وأدبيّة وتربوية، عبر أحداث مثيرة ولغة ممتعة وحبكة ذكيَّة، تدفع القارئ إلى التفكير والتحليق مع الكاتب.

والمؤلف ينطلق في بناء قصصه ورواياته العلمية الخياليّة على أسس واقعيّة لها علاقة بالمكان، ومع ظواهر مدهشة في حياتنا يفسِّرها العلم، وتوقعات مبنيّة على المنطق العلمي لمستقبل الإنسان على هذا الكوكب.. فيجعل كل ذلك منها مادة قيمة، تعود بالنفع والمتعة على القارئ..

